محمد رسول الله

صلى الله عليه وسلم

منهج ورسالة - بحث وتحقيق

الجزء الثاني عشر

تأليـــف:

فضيلة الشيخ / محمد الصادق إبراهيم عرجون

عميد كلية أصول الدين بجامعة الأزهر سابقًا

ابيض

بسم الله الرحمن الرحيم

وجود النبي ﷺ بين أمته أمان لها من عذاب الاستئصال:

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : كان فيهم أمانان ، النبي ﷺ والاستغفار، فذهب النبي ﷺ وبقي الاستغفار.

ضروب من تعنت المشركين

وقد ذكر القرآن الكريم تعنتاتهم في اقتراحاتهم المشتطة في مواضع متعددة من سوره وآياته ، وأجاب عنها فأفحمهم وأبان عن جهالتهم وعنادهم ، وركونهم إلى سفاسف الدنيا في أعلى درجات طموحهم[١] ، وأرفع مراتب مطامعهم ، وكشف عن خبيء نفوسهم ، وأنهم قوم لا يعيشون إلا لبطونهم وشهواتهم ، لا يرتفعون عن الأرض إلا ليقعوا على رءوسهم في مهاويها ، وأخلدوا إلى الأرض لا يريمون عنها ، فكانوا كالمعنيين بقول الله تعالى :

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ

(١) السَّفاسِف: الرديء الحقير من كل أمر وعمل. انظر الوسيط. (المجلة).

ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ
ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ
لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا
وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ
وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾

(الأعراف: ١٧٥- ١٧٨)

حكى عنهم القرآن في سورة الإسراء صورا من هذه الاقتراحات المتعنتة فقال:

﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا
﴿٩٠﴾ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ
خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا
كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوۡ يَكُونَ لَكَ
بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ
تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا
رَّسُولٗا ﴾

(الإسراء: ٩٠- ٩٣)

والمتأمل فيما تعنتوا به رسول الله ﷺ واقترحوه عليه يرى الحماقة ماثلة في كل حرف مما قالوا، وفي كل كلمة

مما اقترحوا، ويرى خرق الرأي، وتفاهة التفكير تتنزى من رءوسهم وتتقاطر من عقولهم صديد غباء، ويرى دناءة الطموح، وطموح الدناءة تتعرى مكشوفة السوءات بادية العورات في مقترحاتهم المتعنتة، فهم لم يطلبوا إلا ينابيع ماء تجري في أوديتهم، ولم يطلبوا إلا جنانًا وحدائق من نخيل وعنب وأنهار تجري خلال تلك الجنات تسقيها، ويأكل منها تنابلة مكة وهم قعود يهجرون.

فإن لم يك هذا ولا ذاك فصواعق تسقط السماء عليهم قطعًا تدمرهم كما دمرت إخوتهم الماديين الوثنيين قبلهم إذ كذبوا رسل الله وكفروا برسالاته.

فإن لم تستجب - يا محمد - لبطوننا وهوس أفكارنا المادية المظلمة فخذ لنفسك من ربك، واطلب منه أن يغنيك عن النصب والكد في سبيل المعاش كما ينصب ويكد سائر الناس، فليعطك ربك عزًا دنيويًا، وترفًا في العيش، وتنعمًا يرفهك في بيت منضد مزخرف بالزينة، مموه بالذهب مرقش بالفضة، منمنم بمتاع الدنيا وزينتها.

ويحكي عنهم القرآن في سورة الفرقان قولهم:

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى

ٱلۡأَسۡوَاقِۙ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ٧ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ﴾

(الفرقان: ٧ ، ٨)

فعقولهم المظلمة لا تستسيغ فهم رسول من عند الله يدعو الناس إلى توحيد الله تعالى وإقامة موازين العدل في الأرض يعيش ببشريته كما يعيش سائر البشر، يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، ليكسب عيشه من كده وعرق جبينه كما يكسب جميع الشرفاء في أرض الله أرزاقهم وأسباب عيشهم.

وهؤلاء الماديون الوثنيون لا يفهمون ما يقولون لأنهم يتناقضون مع أنفسهم، فهم قد عجبوا أن جاءهم رسول يأكل الطعام، وهم أرادوه أن يأكل كما يأكل سائر الناس، ولكن أرادوه أن يأكل من جنة دانية القطوف، يأكل منها وهو مستلق على ظهره يناغي نجوم الليل، لا يتعب ولا يتحرك، فإن لم تكن جنة فكنز من الذهب ينفق منه ما يشاء، فلا ينفد ولا يبيد.

بلادة عقلية، وعقليات بليدة، لا تعرف من الحياة إلا الأكل والطعام والشراب، وحتى هذا الذي تعرفه وتعيش عليه وله، لا تريده إلا عسلا يقطر في أفواههم وهم نائمون، فهم كما قال الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ﴾

(محمد : ١٢)

وكما قال عز شأنه :

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾

(الأعراف : ١٧٩)

ومن غلو هؤلاء الماديين الوثنيين، وإغراقهم في الطيش والسفه الجهول، وطمس بصائرهم عن معرفة جلال الله وقدرته حق قدره تجاوزهم في تعنتهم كل حد بطلبهم من رسول الله ﷺ أن يأتيهم بالله تعالى تحيط به الملائكة جهرة حتى يعاينوه معاينة بأبصارهم، كأنما الله تعالى كائن يملكه الزمان والمكان كما يملك أصنامهم وأوثانهم المادية، تعالى الله عما يقول الجاهلون الظالمون علوًا كبيرًا.

تصور مادي ترابي جهول، لا يدين به إلا عبيد الوثنية في كل عصر ومكان من الحياة، لأنهم لا يعرفون إلا المادة وصورها وأشكالها.

ومن هذا الغلو الجهول الفاجر ما رواه ابن إسحاق، قال: فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ قام عنهم، وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي ـ وهو ابن عمة رسول

الله ﷺ ، أمه عاتكة بنت عبد المطلب ـ فقال لرسول الله ﷺ : يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أمورًا ليعرفوا بها منزلتك من الله ـ كما تقول ـ ويصدقوك ويتبعوك ، فلم تفعل ، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون أنه فضلك عليهم ، ومنزلتك من الله فلم تفعل ، ثم سألوك أن تعجل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل .

فوالله لا أؤمن بك أبدًا حتى تتخذ إلى السماء سلمًا ثم ترقى فيه ، وأنا أنظر إليك حتى تأتيها ، ثم تأتيني معك بصك معه أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ، وايم الله لو فعلت ما ظننت أني أصدقك .

جنون وعته ؟ وطغيان وسفه ، فالماديون الوثنيون في كل زمان ومكان وجيل ، لا يريدون بمقترحاتهم المتعنتة أدلة على صدق دعوة الحق ، ولكنهم يريدون العناد الكفور ، والكفر العنيد ، تملكهم الحسد والحقد فعميت أبصارهم ، وانطمست بصائرهم ، وضلوا عن رؤية الشمس وهي تخطف بأضوائها أبصارهم ، وتحرق بلهبها أفئدتهم .

وقد أرشد الله تعالى نبيه ﷺ أن يرد على تعنتاتهم

المعبرة عن سفه عقولهم وفساد تفكيرهم أبلغ رد وأوجزه، وأقطعه لحجة المعاندين فقال له:

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾

(الإسراء: ٩٣)

فهذا رد وبرهان قاطع، يتضمن:

أولاً: تنزيه الله تعالى عن أن يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء فهو رب الخلق الذي رباهم في أطوار خلقهم، وأطوار حياتهم، وهو رب محمد ﷺ الذي رباه لرسالته فأحسن تربيته وأرسله للناس هاديًا، وعلمه ألا يسمع إلى تعنتاتهم التي لا تعرف لله وقارًا.

ثانيا: بيان أن محمدًا ﷺ عبد من عباد الله، لا يزيد في بشريته على أي فرد من أفراد الناس، يجري عليه في بشريته ما يجري على سائر البشر، وإنما امتيازه الأعلى في اصطفاء الله تعالى له نبيًا ورسولًا، يهدي إلى الحق ويدعو إلى الله، فليس له أن يتحكم على ربه فيسأله ما لم يأذن له به وما لم يكن داخلا في إطار رسالته.

والذي تعنت به المعاندون بمقترحاتهم الفاجرة أمور لا يقدر عليها أحد من البشر، محمد ﷺ فمن دونه، وإذا كان سؤالهم يقصد إلى أن يطلب محمد ﷺ من الله أن يظهر

هذه الأمور التى اقترحوها لتكون معجزة له تدل على صدقه فيما جاءهم به من عند الله ودعاهم إليه في رسالته ودعوته.

فهـذا إمعان في التعنـت لأن دلالة المعجـزة قاطعة على صـدق الرسـول في أية معجـزة يأتي بها متحديًـا، وقد أتى محمد ﷺ بأعظم معجزة تحدى بها العالمين، وهي القرآن الكريـم الـذي يتضمن الإعجـاز، بما تضمنه مـن التحدي وتجبيه المعاندين[٢] فقال لهم:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾

(البقرة: ٢٣، ٢٤)

وقال جل شأنه:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

(يونس: ٣٨)

(٢) تجبيه المعاندين: مواجهتهم بالحجة المفحمة. من الفعل (جبهَهُ) أي أصابه في جبهته. (المجلة).

وقال عز وجهه:

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء: ٨٨)

فهذا التحدي، وهذا التجبيه مع إبلاس المعاندين ونكوصهم على أعقابهم خائبين دليل قاطع على أن محمدًا ﷺ استوفى أرفع درجات التحدي بمعجزته العظمى، ولم تظهر مطلقًا بادرة من بوادر المعارضة، فكان ذلك برهانًا قاطعًا على صدق الرسول، فلا معنى إذًا لطلب معجزات أخرى، والمعجزات المادية كالتي طلبها المعاندون -تعنتًا- ليست من مراقي الإعجاز في رسالة محمد ﷺ؛ لأن رسالته ﷺ رسالة علم وفكر وهدى وخلود، فمعجزتها يجب أن تكون معجزة عقلية علمية هادية خالدة، لا ينقطع التحدي بها زمنا من الأزمان، ولا جيلًا من الأجيال.

ولو كان كل متعنت يقترح شيئا على الرسول تجب إجابته إلى اقتراحه لفتح باب العناد، واقترح كل معاند كفور العناد في كل وقت مقترحات يعنت بها الرسول، فيصبح الأمر عبثا وفوضى، وهذا إفساد للحياة.

وقد تعلق بعض الملاحدة بما في هذا الرد من إيجاز

بليـغ، فلم يفهم ما تضمنه من البرهان القطعي على صحته فقــال: إن هذا جــواب غير مقنع قال الإِمــام القرطبي: وقد غلطــوا لأنــه أجابهــم فقــال: إنمــا أنا بشــر، لا أقــدر على شــيء مما ســألتموني، وليس لي أن أتخير علــى ربي، ولم تكن الرســل قبلي يأتون أممهم بكل مــا يريدونه ويبغونه، وســبيلي ســبيلهم، وكانوا يقتصرون على مــا آتاهم الله من آياتــه الدالة على صحة نبوتهم، فــإذا أقاموا عليهم الحجة، لــم يجز لقومهم أن يقترحوا غيرهم، ولو وجب على الله أن يأتيهــم بكل ما يقترحونه من الآيات لوجب عليه أن يأتيهم بمن يختارونه من الرســل، ولجاز لكل إنســان أن يقول: لا أؤمــن حتى أوتــى خلاف ما طلــب غيري مما يئــول إلى أن يكون التدبير إلى الناس، وإنما التدبير إلى الله تعالى.

ومن لطيف هذا الرد القاطع المحكم، البليغ المفحم أنه جاء في المتواتر مقروءًا بالفعل الماضي:

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾

(الإسراء: ٩٣)

وعلى هــذه القــراءة البديعــة الحكيمة يكــون المعنى في الرد على المعاندين المتعنتين أن رســول الله ﷺ يخبرهم عن نفســه وهم يتعنتونه بمقترحاتهم المادية المظلمة، معرضين

عن الهدى، إذ جاءهم أنه ما هو إلا بشر له خصائص البشر ومقوماتهم، ولكن الله تعالى اصطفاه رسولًا منه يدعو إلى توحيده، فهو عبد تدعوه عبوديته لله الواحد الأحد أن يقف من ربه موقف الأدب الأكمل، فلا يسأله إلا ما يأذن له في طلبه.

وهو رسول من عند الله تدعوه رسالته إلى أن يرتفع بأدبه مع الله تعالى إلى مقام التسليم والرضا بما يحكم ويريد، ولا معقب لحكمه، ولا راد لإرادته.

فالرسول ﷺ في هذا الرد على هذه القراءة المحكمة يبدأ رده على المعاندين المتعنتين بتنزيه الله تعالى عن توهمات المعاندين.. ويضيف هذا التنزيه إلى اسم (الرب) بإضافة الإكرام والتكريم، والشرف والتشريف فكأنه قيل: أنزه ربي الذي تعهدني بتربيته وفضله منذ خلقني، وأدبني برسالته منذ بعثني رحمة للعالمين عن تعنتات المتعنتين؛ لأنه الفعال لما يريد، إذا شاء شيئا كان كما شاء، لا يعجزه شيء، يبدع الأشياء من غيب العدم بقدرته وبعثني رسولًا هاديًا ومبشرًا ونذيرًا، وقد أنذرت المعاندين وحذرتهم بطش الله ونقمته كما حذر الأنبياء من قبلي أممهم، وبشرت المؤمنين برحمة الله وفضله ورضوانه.

***

نهاية المفاوضة مع ملأ طغاة قريش ملأت قلوبهم حقدًا وعتوًا:

انتهى موقف الحوار والمكالمة بين رسول الله ﷺ وملأ المادية الوثنية ممثلة في زعماء قريش، وهو الموقف الذي طلبه الملأ بعد أن تشككوا في موقف سفيرهم عتبة بن ربيعة واتهموه بالصباءة إلى محمد ﷺ، وأنه سحره بلسانه - على هذه الصورة التي رسمناها رواية وتحقيقًا، وتحليلًا وشواهد، فحقب أمر الناس، وشري الشر بينهم(٣)، وتنابذ القوم، وتضاغنوا، وتباعدوا، وتذمرت قريش على رسول الله ﷺ، واشتد إيذاؤها له ولأصحابه، نتيجة لما أفعم نفوسهم من اليأس وخيبة الأمل، وأثرًا لما ملأ قلوبهم من الحقد والاضطغان والحسد.

فقد يئست المادية الوثنية ممثلة في ملأ الطغاة من عباهلة قريش، بعد أن تجلى لها موقف رسول الله ﷺ في حوارها معه ومكالمتها إياه، أن تجد عنده هوادة في عزيمة القيام بأمر دعوته، وصلابته في تبليغ رسالته، كما يئست أن تجد لها منفذا فيما عرضته عليه من مظاهر دنياها في شتى أشكالها، وأبلغ ما تطمح إليه النفوس (الترابية) من صورها وأشكالها وألوانها.

(٣) شريَ الشرُّ بينهم: عَظُم وتفاقم. (المجلة).

فأعرض عنها متسـاميًا في عبوديته ربه، مترفعًا برسالته عـن دناءات دنيـا الماديـة الوثنية من مال وثـراء، وكنوز، وجنات وعيون، وزخرف وزينة، وشـرف وسـيادة، وملك وسـلطان، وأبى عليهم إلا أن يقولوا كلمة واحدة (لا إله إلا الله)، فإذا قالوها ملكوا بها الدنيا من أطرافها، والحياة من أقطارها شرفًا حقيقيًا، وسؤددًا وملكًا مؤثلاً.

موقـف رسـول الله ﷺ وأصحابه مـن فجور قريش كان أرفع مواقف الصبر الجميل:

وقد قابل رسـول الله ﷺ وأصحابه سـفه قريش وإيذاءها بأجمـل الصبر وأعلـى مراتب العفو والغفـران، والإعراض عـن المجـازاة، والصفـح عـن الإسـاءات مـع المحاسـنة والمصابـرة.. روى صاحـب العيـون، وأسـنده فـي الفتح للزبيـر بن بـكار والدار قطني، عـن عروة بـن الزبير، قال حدثني عمرو بن عثمان بن عفان عن أبيه عثمان بن عفان، قـال: أكثـر ما نالـت قريش من رسـول الله ﷺ أنـي رأيت يومًـا - قال عمـرو: ورأيت عيني عثمان بـن عفان تذرفان من تذكر ذلك - قال عثمان بن عفان: كان رسـول الله ﷺ يطـوف بالبيت ويده في يد أبي بكر، وفي الحجر ثلاثة نفر جلـوس: عقبة بن أبـي معيط، وأبو جهل بن هشـام، وأمية

بن خلف، فمر رسـول الله ﷺ، فلما حاذاهم أسمعوه بعض ما يكره، فعرف ذلك في وجه رسـول الله ﷺ، فدنوت منه حتى وسطته، فكان بيني وبين أبي بكر، وأدخل أصابعه في أصابعي حتى طفنا جميعًا، فلما حاذاهم قال أبو جهل: والله لا نصالحك، ما بل بحر صوفة، وأنت تنهى أن نعبد ما يعبد آباؤنا، فقال رسول الله ﷺ: (أنى ذلك).

موقـف لعثمان بـن عفان يـوزن بألـف موقف من مواقف الشجاعة والإيمان:

ثم مضى عنهم فصنعوا به في الشـوط الثالث مثل ذلك، حتى إذا كان في الشـوط الرابع ناهضـوه، ووثب أبو جهل يريـد أن يأخذ بمجامع ثوبه، فدفعتُ في صدره، فوقع على اسـته - واحدة لعثمان رضي الله عنه بألف - ودفع أبو بكر أمية بن خلف، ودفع رسـول الله ﷺ عقبة بن أبي معيط، ثم انفرجوا عن رسـول الله ﷺ، وهو واقف، ثم قال: (أما والله لا تنتهون حتى يحل بكم عقابه عاجلاً).

قـال عثمان: فوالله ما منهـم رجل إلا أخذه أفكل، وهو يرتعـد، فجعل رسـول الله ﷺ يقول: (بئـس القوم أنتم لنبيكـم) ثم انصـرف إلى بيته، وتبعناه حتـى انتهى إلى بـاب البيت ووقف على السـدة، ثم أقبـل علينا بوجهه،

فقال: (أبشروا فإن الله عز وجل مظهر دينه، ومتم كلمته، وناصر دينه، إن هؤلاء الذين ترون مما يذبح الله بأيديكم عاجلاً).

ثم انصرفنا إلى بيوتنا، فوالله لقد رأيتهم قد ذبحهم الله بأيدينا. وروى البخاري عن عروة بن الزبير قال: سألت ابن عمرو بن العاص، قلت: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي ﷺ؟ قال: بينما النبي ﷺ في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فوضع ثوبه في عنقه، فخنقه خنقًا شديدًا، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه فدفعه عن رسول الله ﷺ، ثم قال: (أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله).. وقد ذكر البخاري هذا الحديث مرة أخرى عن عمرو بن العاص عن طريق هشام بن عروة عن أبيه عروة، والرواية المتقدمة من طريق يحيى بن عروة عن أبيه عروة، وقد جمع بين الروايتين الحافظ ابن حجر في الفتح، فقال: فيحتمل أن يكون عروة سأل ابن عمرو مرة وسأل أباه عمرًا مرة أخرى.

رواية أخرى أتم في تفصيل هذه الواقعة:

وذكر ابن إسحاق حديث يحيى بن عروة مجودًا مطولاً فقال: حدثني يحيى بن عروة عن أبيه عروة بن الزبير،

عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قلت له: ما أكثر ما رأيت قريشًا أصابوا من رسول الله ﷺ فيما كانوا يظهرون من عدوانه؟ قال: حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يومًا في الحجر، فذكروا رسول الله ﷺ، فقالوا: ما رأينا مثل صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط، قد سفّه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسب آلهتنا، لقد صبرنا على أمر عظيم.

فبينما هم في ذلك طلع رسول الله ﷺ فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مر بهم طائفًا، فلما مر بهم غمزوه ببعض القول، فعرفت ذلك على وجه رسول الله ﷺ، ثم مضى فلما مر بهم ثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك على وجه رسول الله ﷺ، ثم مر بهم الثالثة، فغمزوه بمثلها، فوقف، ثم قال: (أتسمعون يا معشر قريش؟ أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح) فأخذت القوم كلمته، حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه الطير واقع، حتى إن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول(٤)، حتى إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم فوالله ما كنت جهولاً، فانصرف النبي ﷺ حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر

(٤) ليرفؤه: أي يحابيه. (المجلة).

وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه، فبينما هم في ذلك طلع عليهم رسول الله ﷺ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا به يقولون: أنت الذي تقول: كذا، وكذا؟ لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم، فيقول رسول الله ﷺ: (نعم أنا الذي أقول ذلك)، فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجامع ردائه، فقام أبو بكر رضي الله عنه دونه، وهو يبكي، ويقول: (أتقتلون رجلاً يقول ربي الله) ثم انصرفوا عنه. قال ابن عمرو: فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشًا نالوا منه قط.

روايات مختصرة في تصوير فجور ملأ قريش:

وأخرج البخاري من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة قال: حدثني عمرو بن العاص: قال: ما رأيت قريشًا أرادوا قتل رسول الله ﷺ إلا يومًا أغروا به وهم في ظل الكعبة جلوس، وهو يصلي عند المقام، فقام إليه عقبة بن أبي معيط، فجعل رداءه في عنقه[٥]، ثم جذبه به حتى وجب لركبتيه، وتصايح الناس، وأقبل أبو بكر يشتد حتى أخذ

(٥) الرداء: ما يستر الجزء الأعلى من البدن. (المجلة).

بضبع[٦] رسول الله ﷺ من ردائه، وهو يقول: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ (غافر: ٢٨) ثم انصرفوا عنه، فلما قضى صلاته مر بهم فقال: (والذى نفسي بيده ما أرسلت إليكم إلا بالذبح) فقال له أبو جهل: يا محمد: ما كنت جهولاً؟ فقال رسول الله ﷺ: (أنت منهم).

وأخرج البيهقي في الدلائل من حديث ابن عباس عن فاطمة الزهراء -عليها السلام- قالت: اجتمع المشركون في الحجر، فقالوا: إذا مر محمد ضربه كل رجل منا ضربة، فسمعت فاطمة عليها السلام، فأخبرته - أي أباها رسول الله ﷺ - فقال لها: (اسكتي يا بنية) ثم خرج فدخل عليهم فرفعوا رءوسهم ثم نكسوا، قالت فاطمة عليها السلام: فأخذ النبي ﷺ قبضة من تراب فرمى بها نحوهم، ثم قال: (شاهت الوجوه) فما أصاب رجلاً منهم إلا قتل يوم بدر كافرًا.

وأخرج أبو يعلى والبزار بإسناد صحيح عن أنس بن مالك قال: لقد ضربوا رسول الله ﷺ حتى غُشي عليه، فقام أبو بكر فجعل ينادي: ويلكم؟ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، فتركوه وأقبلوا على أبي بكر.

(٦) أخذ فلان بضبع فلان: أعانه لينهض. (المجلة).

وأخرج أبو يعلى من حديث أسماء بنت أبي بكر عن عروة بن الزبير، عن عمرو بن العاص قال: سُئلت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها: ما أشد ما رأيت من المشركين بلغوا من رسول الله ﷺ؟ فقالت: كان المشركون قعودًا في المسجد يتذاكرون رسول الله ﷺ وما يقول في آلهتهم، فبينما هم كذلك إذ أقبل رسول الله ﷺ فقاموا إليه بأجمعهم، فأتى الصريخ إلى أبي بكر رضي الله عنه: أدرك صاحبك، فخرج من عندنا وإن له لغدائر أربعًا، وهو يقول: ويلكم: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ فلهَوْا عن رسول الله ﷺ، وأقبلوا على أبي بكر، فرجع إلينا أبو بكر، فجعل لا يمس شيئاً من غدائره إلا جاء معه، وهو يقول: تباركت يا ذا الجلال والإكرام.

أما أصحاب رسول الله ﷺ فقد اشتدت عليهم المحن، وعظم البلاء، وتذامرت قريش على من في القبائل والبيوتات منهم، يعذبونهم، ويفتنونهم عن دينهم، ويحبسونهم ويضربونهم ويجيعونهم، ويعطشونهم، ويوقعون بهم كل بلاء يرون أنه يمكن أن يصدهم عن دينهم، ويردهم عن عقيدتهم التوحيدية إلى كفر الوثنية والشرك المادي العنيد.

فكانــوا يلقونهــم فــي رمضاء مكــة إذا اشــتد الحر ، من استضعفوا منهم ، ومن قوي وصلب ، فالمستضعفون كانوا لا يطيقون العذاب فيجيبونهــم إلى الفتنة ، والأقوياء كانوا أصبر على ما يصيبهــم من التعذيب ، متحملين فادح البلاء وعظيم الإِيذاء .

روى ابن إســحاق عن ابن عباس رضــي الله عنه من طريق ســعيد بــن جبير ، قــال : قلــت لعبد الله بــن عبــاس : أكان المشــركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب مــا كانوا يعــذرون به في تــرك دينهم؟ قال : نعــم ، والله إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالسًا من شدة الضر الذي نزل به ، حتي يعطيهم ما سألوه من الفتنة افتداء منهم بما يبلغون من جهده .

فدائيــة بــلال لدينــه وعقيدتــه ومواقفــه الفذة في الصبر على أفدح البلاء:

وقد اشــتهر من هؤلاء المعذبيــن الصابرين أبطال كانوا غرة اليقين في جبين الإِسلام ، وأشهر من شهر منهم سيدنا بــلال بن رباح مولى أبــي بكر ومؤذن رســول الله ﷺ ، فقد كان أميــة بن خلــف الجمحي يخرجه إذا حميــت الظهيرة فــي رمضاء مكــة ، ويطرحه على ظهره في ســعير البطحاء ،

ثــم يأمــر بالصخرة العظيمــة ، وهي تتقد من شــدة الحميم والحــر ، فتوضع على صــدره ، ثم يقول لــه : لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى ، فيقــول صادق الإيمــان وطاهر القلب بلال وهــو في حومة ذلك البلاء : أحد ، أحد .

وقــد مر أبو بكــر الصديق رضي الله عنــه ببلال مرة وهو علــى هذه الحال من العذاب ، وكانــت دار أبي بكر في بني جمح ، فقال لأمية بن خلف : ألا تتقي الله في هذا المسكين ؟ حتى متى ؟ ! .

وقــال لعين الماديــة الوثنيــة أمية بن خلــف لأبي بكر : أنت الذي أفســدته فأنقذه مما ترى ، فاهتبلها أبو بكر نهزة ســانحة ، فقال : أفعل ، عندي غلام أســود أجلد منه وأقوى ، وهــو على دينك أعطيكه به ، قال أمية : قد قبلت : فقال أبو بكــر : هو لــك وأعطاه الغلام الأســود ، وأخذ بــلالاً فأعتقه لحظة أن ملكه .

وكان عمر بن الخطــاب رضي الله عنه يعظم بلالاً ويقدر إيمانــه وصبره حتى قال : أبو بكر ســيدنا وأعتق ســيدنا – يعني بلالاً – رضي الله عنهم أجمعين .

ممن شهروا بأجمل الصبر النهديتان وحررهما أبو بكر:

وممن شهر في بطولة الصبر واحتمال الأذى وشديد البلاء النهدية وابنتها، وكانتا لامرأة من بني عبد الدار، فمر بهما أبو بكر وقد بعثتهما سيدتهما بطحين لها، وهي تقول لهما: والله لا أعتقكما أبدًا، فسمع أبو بكر كلامها، فقال لها: حل يا أم فلان – أي تحللي من أليتك وقسمك – فقالت حل، أنت أفسدتهما فأعتقهما، قال الصديق رضي الله عنه: فبكم هما؟ قالت العبدرية: بكذا وكذا، قال الصديق رضي الله عنه: قد أخذتهما، وهما حرتان، أرجعا لها طحينها، قالت النهديتان المعذبتان: أو نفرغ منه يا أبا بكر، ثم نرده إليها؟ قال أبو بكر رضي الله عنه: وذلك لكما إن شئتما.

أما صنيع أبي بكر فهذا أمر فوق طاقة التقدير القلمي واللساني، وهو خلق في أبي بكر، ولد به مع إسلامه، وكان رضي الله عنه يتتبع المستضعفين من العبيد والموالي فيشتريهم ويعتقهم لحظة شرائهم تقربًا إلى الله تعالى ونشرًا للإسلام، حتى قال له أبوه عثمان أبو قحافة: يا بني إني أراك تعتق رقابًا ضعافًا، فلو أنك إذ فعلت ما فعلت،

أعتقت رجالاً جلدًا يمنعونك ويقومون دونك ؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا أبت إني أريد ما أريد ! قال العلماء : يقصد أبو بكر أنه لا يريد شيئًا من أمور الدنيا ، وإنما يريد وجه الله تعالى وهو خير حافظًا ، وفيه نزل قوله تعالى :

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤۡتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾ (الليل : ١٧ - ٢١)

وروى أبو الحسن الواحدي عن ابن عباس من طريق عطاء : أن بلالاً لما أسلم ذهب إلى الأصنام فلح عليها وكان عبدًا لعبد الله بن جدعان ، فشكى إليه المشركون ما فعل ، فوهبه لهم ، ومائة من الإبل ينحرونها لآلهتهم ، فأخذوه وجعلوا يعذبونه في الرمضاء وهو يقول : أحد ، أحد ، فمر به رسول الله ﷺ ، فقال : (ينجيك أحد ، أحد) ، ثم أخبر رسولُ الله ﷺ أبا بكر ، أن بلالاً يعذب في الله ، فحمل أبو بكر رطلاً من ذهب فابتاع به بلالاً ، فقال المشركون ما فعل أبو بكر ذلك إلا ليدٍ كانت لبلال عنده ، فأنزل الله تعالى :

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾

وذكـر القرطبي هـذا الحديث مختصرًا، ولـم يذكر فيه عبـد الله بن جدعان، وإنما ذكر أمية بن خلف، موافقة لابن إسحاق؛ فقال: روى عطاء عن الضحاك عن ابن عباس قال: عذب المشـركون بلالاً، وبلال يقـول: أحد، أحد، فمر به رسول الله ﷺ فقال: (أحد – يعنى الله تعالى – ينجيك) ثم قـال لأبي بكر: (يا أبا بكر، إن بلالاً يعذب في الله) فعرف أبـو بكر الـذي يريد رسـول الله ﷺ فانصرف إلـى منزله، فأخذ رطلاً من ذهب ومضى به إلى أمية بن خلف، فقال: ألا تبيعنى بلالاً؟ قال: نعم، فاشتراه فأعتقه، فقال المشركون: ما أعتقه أبو بكر إلا ليدٍ كانت له عنده، فنزلت:

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾

وقال سـعيد بن المسـيب: بلغني أن أميـة بن خلف قال لأبـي بكر حين قال له أبو بكر: أتبيعنيـه؟ قال: نعم أبيعه بنسـطاس، وكان نسـطاس عبدًا لأبي بكر صاحب عشـرة آلاف دينار، وغلمان وجوار ومواش، وكان مشركًا، فحمله أبو بكر على الإسلام على أن يكون له ماله، فأبى، فباعه أبو بكر ببلال، فقال المشركون: ما فعل أبو بكر ببلال هذا إلا ليدٍ كانت لبلال عنده فنزلت:

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾

أدب إسلامي في مقابلة فجور وثني:

وأما صنيع النهدية وابنتها، وقد أذاقتهما سيدتهما العبدرية سوء العذاب، وهي ترسلهما بطحينها وتتوعدهما مهددة بأنها لا تطلقهما من العذاب والرق أبدًا، ويسمعها الصديق فيستحلها يمينها، فتقول له: أنت أفسدتهما فخلصهما إن شئت، فبادر الصديق يسألها عن ثمنهما في تقديرها، فطلبت ما طلبت، فلم يماكسها أبو بكر فيما طلبت، بل أسرع فقال: قد أخذتهما وعجل، فأتبع ذلك قوله: وهما حرتان، ثم أراد أبو بكر أن يشعر الجاريتين بما نالاه من حرية ويذيقهما سعادتها متعجلاً، فقال بعد أن حررهما: أرجعا لها طحينها.

وإلى هنا كانت الطبيعة البشرية المنطلقة من أغلال العبودية، المخلصة من بلاء العذاب المنقذة من ذل الاستعباد مهيئة أن تستبد بها الفرحة، ويستفزها شعور الحرية وإحساس المساواة في الحقوق والواجبات بهاتين الجاريتين اللتين كانتا من لحظة تفرض عليهما أحكام العبودية في صلف واستكبار من سيدتهما الظالمة، وهي

تتهـدد وتتوعـد، وتزمجـر، وتنـذر متحفـزة للوثبـة للرد علـى الظلـم والتعالي علـى الظالميـن، ولا أقل مـن أنهما كانتـا ترميـان بطحين هذه السـيدة الظالمة التي سـاوياها في الحرية وتسـاميا عليها بالإسـلام بيـن يديها معرضتين ازوراراً، تنظران إليها شذراً.

ولكن أدب الإسـلام ومـكارم الأخلاق التـي قامت دعائمه عليهـا ومعرفة الله تعالى بجلال وحدانيتـه أبت عليهما إلا أن يكونـا متفضلتين بالإحسـان على من طالما أسـاءت إليهما، فقالتا لأبي بكر رضي الله عنه وهو يقول لهما بعد أن حررهما، أرجعـا إليها طحينهـا ليعجل لهما مذاق الحريـة: أونفرغ منه يا أبـا بكر ثم نرده إليها؟ فوسـعهما خُلُق الصديق، ورد ذلك لمشيئتهما فقال: ذلك لكما إن شئتما.

لله هـذا الديـن الحنيف فـي آدابـه وفواضله، وشـمائل فضائلـه، ولله قوم ادرعـوه عقيدة وعملاً، فهـو دين يجعل مـن الفضائل قوى في طبيعته التـي يقوم عليها التعامل بين الناس.

صبر خباب بن الأرت على أفجر البلاء:

وممن شـهر بالبطولة الصابرة، والعفو الصفوح في هذه الفترة القاسـية سـيدنا خباب بن الأرت رضي الله عنه. روى

ابن سعد في الطبقات عن الشعبي، قال: دخل خباب بن الأرت رضي الله عنه على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأجلسه في متكئه وقال: ما على وجه الأرض أحد أحق بهذا المجلس من هذا إلا رجل واحد، قال خباب: من هو يا أمير المؤمنين؟ قال عمر: بلال: فقال خباب: ما هو أحق مني، إن بلالاً كان له في المشركين من يمنعه الله به، ولم يكن لي أحد يمنعني، فقد رأيتني يومًا أخذوني فأوقدوا لي نارًا ثم سلقوني فيها، ثم وضع رجل رجله على صدري فاتقيت الأرض بظهري. وعند أبي نعيم، أن خبابًا قال لعمر: أوقدوا لي نارًا فما أطفأها إلا ودك ظهري.

من سادة الصابرين على أفدح البلاء أسرة ياسر أبي عمار:

وقد كتبت أسرة ياسر بن عامر: ولديه عمار وعبد الله وأمهما سمية في سجل البطولة الفدائية آيات من الصبر الصبور واحتمال أشد الأذى والعذاب، وأفدح البلاء، كانت أسطرًا من النور الفدائي والتضحية بالنفس في سبيل العقيدة التي استناروا بضيائها، ومات ياسر رضي الله عنه تحت العذاب، وماتت سمية رضي الله عنها بطعنة فاجرة من غميز الرجولية أبي جهل، ورمي عبدالله فسقط ولم يبق

منهم إلا عمار رضي الله عنه فكانت له آثار الصدق في جميع مواقف الإسلام والجهاد التي شهدها.

وكان يمر بهم رسول الله ﷺ وهم يعذبون فيقول: (صبرًا آل ياسر فإن موعدكم الجنة) وقد كانت مواقف النبي ﷺ في قوة احتماله وعظيم صبره على بلاء المعاندين من طغاة قريش وشدة أذاهم وسفه سفهائهم تثير في أنفس أصحابه مشاعر التصبر والمصابرة وألوان الرضا بما ينالهم من المحن والشدائد تأسيًا به ﷺ، وكان إذا رأى من بعضهم ركونًا إلى الضجر وعدم الاحتمال أثار في قلوبهم قوة اليقين وفي نفوسهم قوة الصبر والاحتمال بما يضرب لهم من الأمثال، وما يقص عليهم من أنباء الذين أوذوا في سبيل الله من السابقين المؤمنين في القرون الخوالي والأمم الماضية، ويبشرهم بقرب الفرج والنصر والعزة.

روى البخاري عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال أتيت النبي ﷺ وهو متوسد برده، وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة وقلت: ألا تدعو الله؟ فقعد وهو محمر الوجه فقال: (قد كان من قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى

حضرموت، ما يخاف إلا الله عز وجل، والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون).

***

كان ما يلقى رسول الله ﷺ من شدة البلاء أقوى الدوافع على المضي قدمًا في تبليغ رسالته:

مضى رسول الله ﷺ في النهوض بدعوته، وتبليغ رسالته قويًا معزومًا له لا يبالي ما يلاقي من بلاء وعناء، أو سفه وإيذاء، لم يفتر لحظة، ولا ونى فترة.

وكان موقف العناد الكفور، والتعنت الجهول الذي وقفه منه ملأ قريش في مكالمتهم الجماعية المتعنتة حافزًا من حوافز الإقدام ودافعاً من دوافع القوة، وعاملاً من أقوى عوامل الإصرار الحازم والعزم الصارم، دفع رسول الله ﷺ إلى بسط مدى دعوته في أكناف مكة وما حولها من محلات العرب ومنازلهم ومجتمعاتهم ومحافل مواسمهم وأسواقهم.

فكان ﷺ لا يسمع برئيس قبيلة أو زعيم بيت أو عشيرة من بيوتات وعشائر العرب وبطونهم في منزل من منازل الوافدين على مكة للتجارة أو الحج إلا ذهب إليه يدعوه وقومه إلى الله ويناديه إلى الهدى ائتنا، ويسمعه من

آيـات القرآن ما فيه شـفاء للقلوب والأفئـدة ونور للبصائر والأفـكار، وكانــت قريش بعد فشـلها فـي مكالمته ﷺ ، ومـا عرض عليه ملؤها مـن أمور الدنيا الماديـة تتبعه أينما ذهب، وحيثما ولى لله وجهه أو نزل، فإذا سمعوه يدعو إلى الله تعالـى بـادروه بالتكذيب والاسـتهزاء، ورموه بالجنون والسـحر، وكان أشدهم عليه في ذلك عمه المتبوب(٧) أبو لهـب، يمشـي وراءه وهو يقول للناس: إن هـذا يأمركم أن تتركـوا دين آبائكم وهذا عار عليكم.. وكان هذا من أشد ما أوذي به رسـول الله ﷺ ، لأن النـاس كانوا في جاهليتهم أشـد تمسـكًا بمواريث الآباء والأجداد، وأشد حرصًا على التشـبث بمراسم المادية الوثنية، لا يفهمون لأول وهلة إلا ما وافق تراثهم الجاهلي وعاداتهم التقليدية.

فإذا دعاهم رسـول الله ﷺ إلـى توحيد الله تعالى، وخلع الأنـداد وإخـلاص العبوديـة لله وحـده والتحرر مـن أغلال التعبد للأصنام والزعماء والرؤساء، وبدر أبو لهب بتكذيبه والتحذير من قبول دعوته، سألوا عنه، فقالوا: مَنْ هذا وراءه يكذبه؟ فيقال عمه، وتسـري هذه فـي الغوغاء والجماهير

(٧) من التباب وهو الهلاك، وهي إشارة إلى قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (المسد: ١) (المجلة).

التي تعيش بعواطفها وشعور التبعية لكل ناعق، فيقولون معرضين عن هداية الإسلام: قومُ الرجل أعلمُ به، ولهذا قال النبي ﷺ: (ما أوذي أحد ما أوذيت) لأن كل أذية تلحق شخصه ﷺ في بدنه مهما عظمت وفدحت واشتد أثرها لا توضع قط في ميزان مع أية أذية تعترض طريق الدعوة، وتعوق تبليغ الرسالة مهما ضؤلت.

ومن هنا كان ما أوذي به إخوانه الأنبياء والمرسلون وأتباعهم في أبدانهم مع تناهي شدته وقسوته لا يقع موقع ما أوذي به ﷺ في تعويق رسالته، ووضع العقبات أمامها.

بيد أن جماهير القبائل العربية، وفيهم عقلاؤهم وحكماؤهم، وذوو رأيهم كانوا يرجعون من مواسمهم ولا حديث لهم إلا في شأن رسول الله ﷺ، وشأن دعوته من بعثه رسولاً من عند الله، من الصدق والأمانة ومكارم الأخلاق وعليا الشمائل.

وكان صدى ذلك يرجع في آفاق مكة فيصك آذان ملئها وزعمائها، ويلج إلى قلوبها وأفئدتها فيحرقها، فرعبت قريش رعبًا شديدًا، وداخلها خوف أقلقها، فأقامها وأقعدها، فهي قد فشلت في كل ما دبرت وقدرت في مناهضة دعوة محمد ﷺ، فقد مكرت به لتقتله، وقد دبرت له كل ما

تمخضت عنه قرائح ملئها من السوء والتعذيب والإيذاء، ولكنها ها هي ذي ترى بأعينها دعوته تسري إلى العرب في منازلهم، ويتحدث الناس عنها، ويتجاوز الحديث عنها الغوغاء والجماهير إلى الحكماء والعقلاء وذوي الرأي من الشعراء والخطباء والحنفاء الذين أدركوا ذروًا[٨] من الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام، فتعلقوا به انتظارًا لبعث خاتم الأنبياء والمرسلين.

رأي سوء من زعيم سوء: الوليد بن المغيرة، واجتمع ملأ قريش وعباهلتها إلى طاغيتهم، شيخ الكفر، أشيب بني مخزوم، ومديان العرب وصاحب ثرائهم، ومالك ناصية تجارتهم، وصاحب خزائن ربوياتهم وسحتهم: الوليد بن المغيرة، وكان الوليد قد عتا في سنه، فبلغ من الهرم عتيا، فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيًا واحدًا، ولا تختلفوا فيكذِّب بعضكم بعضًا، ويرد قولكم بعضه بعضًا.

قال الملأ من قريش: فأنت يا أبا عبد شمس فقل، وأقم لنا رأيًا نقول به.

---

(٨) الذرو من الشيء: طَرَفٌ منه. (المجلة)

قال الوليد : بل أنتم فقولوا أسمع - يريد أن يفيل آراءهم لتكون له الكلمة الأخيرة[٩] . قال الملأ من غطارف قريش[١٠] : نقول : هو كاهن .

قال الطاغية الوليد : والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان ، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه .

قال الملأ من عباهلة قريش فنقول : هو مجنون .

قال الطاغية الوليد : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون ، وعرفناه ، فما هو بخنقه ، ولا تخالجه ولا وسوسته .

قال ملأ قريش : فنقول : هو شاعر .

قال الطاغية : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله ، رجزه ، وهزجه ، وقريضه ، ومقبوضه ، ومبسوطه ، فما هو بالشعر .

قال الملأ وقد ملأتهم الدهشة والحيرة : فنقول : هو ساحر .

قال الوليد : ما هو بساحر ، لقد رأينا السُّحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم ، قال الملأ وقد فرغ صبرهم ، ونفد تفكيرهم ، وعييت عقولهم ، فما تقول يا أبا عبد

(٩) فال الرأيُ فيولةً: ضعف، وأفال الرأي: ضعَّفه.

(١٠) غطارف: جمع غِطريف. وهو السيد الشريف. (المجلة).

شمس؟ فنُطِق الحقُّ على لسان الطاغية في غيبة عتو الكفر والجحود فقال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق[١١]، وإن فرعه لجناة[١٢]، وما أنتم بقائلين من هذا -أي الذي زعمتوه- شيئًا إلا عُرف أنه باطل.

لكن شيطان العتو الجَحود، وفجور المادية الوثنية الكنود التي يعيش في بُلَهْنِيَتِهَا أشيب قريش وعاتيها[١٣]، لم يلبث أن صحا في نفس الطاغية العنيد حتى أملص الوليد من خيوط النور التي شعشعت لحظة في أفق الحق، فأنطقت جدار الكفور العنيد بما أملته السماء من وصف دعوة محمد ﷺ ورسالته ومكانها الأدمغ من الوجود، وما تنزلت به آياتها من حلاوة دانية القطوف للعقول والقلوب والأرواح، فعاد إلى عناده كفورًا يقول:

وإن أقرب القول فيه لَأن تقولوا: ساحر، جاء بقول هو سحر، يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته.

فتفرَّقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسبيل الناس حين

(١١) إن أصله لعَذْق: العذق النخلة. يشبهه بالنخلة في ثباتها. (المجلة)
(١٢) جناة: جنيّ مثمر. (المجلة)
(١٣) يقولون فلان في بُلَهْنية من عيشه: إذا كان في رخاء وعزة.

قدموا الموسم، لا يمر بهم أحد إلا حذَّروه إياه، وذكروا لهم أمره.

ورد الله كيدهم في نحورهم فكانوا بما دبروا ومكروا أحمرة تحمل على ظهورها الدعوة إلى الله تنشرها في آفاق العرب، فصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ، وانتشر ذكره في الآفاق، وسارت دعوته مع الشمس إلى كل منزل من منازل العرب، ودخلت كلَّ حي من أحيائهم، وحلَّت بكل محلة من محلاتهم، وانقلب مكر ملأ قريش وتدبير طاغيتها العنيد وبالًا عليهم وخيرًا وبركة لمحمد ﷺ.

وهكذا إذا أراد الله أمرًا من الخير والهدى أتاح له منافذ الظهور من بين براثن أعتى مقومات الشرور.

ذكر القرطبي أن عثمان بن مظعون قال: ما أسلمتُ ابتداءً إلا حياءً من رسول الله ﷺ حتى نزلت هذه الآية:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾

(النحل: ٩٠)

وأنا عنده، فاستقر الإيمان في قلبي فقرأتها على الوليد بين المغيرة فقال: يا ابن أخي أعد؟ فأعدتُ، فقال: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أصله لمورق، وأعلاه لمثمر، وما هو بقول بشر.

كاد أن يؤمن لولا عناد الكفر وسبق القدر:

والوليد بن المغيرة -وهو من هو في عتو المادية الوثنية، وعناد الشرك، وتعاقل المحنكين- يقرر في غير مواربة ولا مداورة أن محمدًا ﷺ أبعد ما يكون أحدٌ عن الكهانة وزمزمتها وعن الجنون وخنقه ووسوسته، وعن الشعر وهزجه، وعن السحر ونفثه، وأن لقوله لحلاوة يتذوقها الأبيناء فصحاء العاربة، وأنه قول ثابت الأصل في أرض الحقيقة، راسخ الدعائم في آفاق الصدق والهدى، فهو كالعذق -وهي النخلة التي ثبت أصلها ودنا جناها، وطاب فرعها- وصارح الوليد قومه بأن أي شيء من أباطيلكم في اتهام محمد بالسحر والجنون والكهانة والشعر أنتم قائلوه للناس باطل لا يقبل.

لكن عناد الكفر أبى على هذا العتل الجواظ أن يَثْبُتَ على قالة الحق شيئًا من ثبات في لحظة من زمن، فسرعان ما نكص الوليد على عقبيه كما نكص الشيطان عن لهزمتيه -وكان قابضًا عليهما يقوده بهما إلى حتفه- إذ قال ما قال من الحق في وصف محمد رسول الله ﷺ، ووصف قوله الذي يتلوه على الناس بأن له لحلاوة، وأن عليه لطلاوة، وما هو بقول بشر، وناقض نفسه، فعاد يقوده الشيطان

كالجمل المخشوش بزمام العناد الكَفور والكفر العنيد، وقد فكر وقدر، وعبس وبسر، وأدبر معرضًا عن الحق، مستكبرًا عن الإذعان له وقال: إن ما يقوله محمد ما هو إلا سحر أثير لا يستطيع أحد أن يقول مثله، ألستم ترونه يفرق بهذا القول بين المرء وأبيه والمرء وأخيه والمرء وزوجه والمرء وعشيرته؟

أخرج الحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن فكأنه رقَّ له، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالًا ليعطوكه، فإنك أتيت محمدًا لتعرض لما قِبَله(١٤)، قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالًا، قال أبو جهل: فقل فيه قولًا يبلغ قومك أنك له منكر، وأنك كاره له، قال: وماذا أقول: فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني، والله ما يشبه هذا الذي يقوله شيئًا من هذا، والله إن لقوله الذي يقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته، قال أبو جهل: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه قولًا: قال

---

(١٤) لتعرض لما قِبَله: أي لتنال مما عنده من طعام وشراب (المجلة).

الوليد : فدعني حتى أفكر ، فلما فكر قال : هذا سحر يؤثر ، فنزلت :

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾

(المدثر : ١١)

قال ابن كثير : والمذكور في هذا السياق هو الوليد بن المغيرة المخزومي ، أحد رؤساء قريش لعنه الله ، وكان من خبره في هذا ما رواه العوفي عن ابن عباس قال : دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر بن أبي قحافة فسأله عن القرآن ، فلما أخبره خرج الوليد على قريش فقال يا عجبًا لما يقول ابن أبي كبشة -يعني رسول الله ﷺ ، وأبو كبشة لقب أبيه رضاعًا- ، فوالله ما هو بشعر ، ولا بسحر ، ولا بهذي مجنون ، وإن قوله لمن كلام الله ، فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام قال : أنا والله أكفيكم شأنه ، فانطلق حتى دخل عليه بيته فقال له : ألم تر إلى قومك قد جمعوا لك الصدقة ؟ قال الوليد : ألست أكثرهم مالًا ؟ فقال له أبو جهل : إنهم يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه ، فقال الوليد : أقد تحدث به عشيرتي ؟ فلا والله لا أقرب ابن أبي قحافة ولا ابن أبي كبشة ، وما قوله إلا سحر يؤثر .

فأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ :

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾

إلى قوله :

﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾

(المدثر : ١١ - ٢٨)

وذكر القرطبي قصة الوليد بن المغيرة مسندة فقال : لما نزل

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾

إلى قوله : ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ (غافر : ١ - ٣)

-أي أول سورة غافر. وغيره يقول : حم السجدة أي سورة فصلت، سمعه الوليد يقرؤها، فقال : والله لقد سمعت كلامًا ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وما هو بقول بشر، فقالت قريش : صبأ الوليد لَتَصْبُونَّ قريشٌ كلها، وكان يقال للوليد : ريحانة قريش، فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه. فمضى إليه حزينًا، فقال له : ما لي أراك حزينًا ؟ فقال أبو جهل : وما لي لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك

نفقة يعينونك بها على كبر سنك، ويزعمون أنك زينت كلام محمد، وأنك تدخل على ابن أبي كبشة وابن أبي قحافة لتنال من فضل طعامهما، فغضب الوليد وقال: أنا أحتاج إلى كِسَر محمد وصاحبه، فأنتم تعرفون قدر مالي، واللات والعزى، ما بي حاجة إلى ذلك، وإنما أنتم تزعمون أن محمدًا مجنون، فهل رأيتموه قط يخنق؟ قالوا: لا، والله. قال: وتزعمون أنه شاعر، فهل رأيتموه نطق بشعر قط؟ قالوا: لا، والله. قال: فتزعمون أنه كذاب، فهل جربتم عليه كذبًا قط؟ قالوا: لا، والله. قال: فتزعمون أنه كاهن، فهل رأيتموه تكهن قط؟ ولقد رأينا للكهنة أسجاعًا وتخالجًا، فهل رأيتموه كذلك؟ قالوا: لا، والله.

وكان النبي ﷺ يسمى الصادق الأمين من كثرة صدقه، فقالت قريش للوليد: فما تقول فيه؟ ففكر في نفسه، ثم نظر، ثم عبس وبسر، فقال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه.

تكرار قصة سماع الوليد القرآن وقوله في مدحه ما قال أرجح من وقوعها مرة واحدة:

وقصة الوليد بن المغيرة باستماعه للقرآن، وقوله فيه لأول ما قرعت آياته قلبه وعقله ما قال من مدح وثناء ثم

إنكاره كذبًا بعدما فكر في دنياه ومكانته من قومه، وتعيير أبـي جهل لـه- قصةٌ تحتمل التكرار، وأنهـا وقعت له أكثر مـن مرة، وهذا هو الأظهر والأقرب إلى التوفيق بين روايات القصة، لاسيما أنهـا روايات تختلف اختلافًـا جوهريًا في تسمية من سـمع منه الوليد القرآن فبعض الروايات يقول: إن الوليد سمع رسول الله ﷺ يقرأ

(حـم) السـجدة، أو (حـم) غافـر، وبعضهـا يقول إن الوليد سـمع أبا بكر يقرأ فأصغى إليه، وبعضها يقول: إنه سـمع عثمان بـن مظعون، فهذا الاختلاف فيمن سـمع منه الوليـد القـرآن اختلافٌ أساسـي في القصة يؤكـد تكرارها وأنه سـمع من كل هؤلاء، وقـد كان يعيش في لجج الحيرة والشـك، وهذا يقتضيه أن يكرر سماعه لآيات القرآن، وأن يعدد الأشـخاص يسـمع منهم ليخرج مـن حيرته المظلمة وشكه المريب.

ويؤكـد تكرار القصة اختـلاف الروايات في الآيات التي سـمعها الوليد، فبعض الروايات يذكر أنه سمع أول سورة (غافر) وبعضها يذكر أنه سـمع أول سورة (فصلت) كما سـمعها عتبـة في سـفارته عـن قريش إلى رسـول الله ﷺ، وبعضها يذكر أنه سمع قول الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾

(النحل: ٩٠)

وتكرار قصة سماع الوليد للقرآن يشبه أن يكون أمرًا طبيعيًا وخصوصًا أن الوليد في عتو كفره وجحوده ومكانته الراسية من المادية الوثنية لا يتعجل الحكم، ولابد له من تكرار السماع وتعدد مصادره، لينظر مقدار الاختلاف والتوافق بين هذه المصادر في أسلوب ما يسمع وحقائقه ومعانيه ومقاصده، فلما وجد ما سمع أسلوبًا ومعاني في الهداية وحقائق في التوحيد وأصول الفضائل، جاء كلامه في جميع الروايات عن القرآن ووصفه متوافقًا متناسقًا، وجاء كلامه عن رسول الله ﷺ في معرفته بالصدق والأمانة، ومكارم الأخلاق، وبعده عن جميع ما زعمه عليه أعداؤه، أعداء رسالته ودعوته من ملأ قريش- موحِّدًا لوثيق معرفة سائر قومه به.

الوليد في آيات القرآن نموذج للشر الخبيث في كل زمان ومكان:

وقد جعل القرآن الحكيم على سنته ونهجه في تصوير الطبيعة البشرية في جانبيها جانبي الخير والشر، في نماذج من الأفراد والجماعات تمثل جوانب الخير والشر

لتكون تلك النماذج مُثُلًا حية مضروبة للأجيال في كل زمان ومكان، ترى فيها نفسها، ليكون ذلك أدعى للتأسي في الخير، وأردع عن الوقوع في حمأة الشر - من هذا الطاغية العنيد، الوليد بن المغيرة نموذجًا لأخبث نوع من الشر الأثيم في طبيعة البشر، ولاسيما وهو في مكانته من زعامة قومه وبلده، فنزل فيه وفي كل من كان على شاكلته في أجيال البشرية المتعاقبة من عناد للحق. وطغيان الكفر، وفجور الاستبداد، أينما وجد من أرض الله، قولُ الله تعالى من سورة (المدثر):

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾

إلى قوله:

﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾

(المدثر: ١١ - ٢٥)

ثم أتبع القرآن الكريم ذلك بذكر الجزاء العادل الذي ينتظر هؤلاء الأثمة الفجرة، يَقْدُمهم الوليد وأضرابه من نماذج الشر الأثيم، والعناد الكفور، فقال:

﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾

إلى قوله تعالى:

﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾

(المدثر: ٢٦ - ٢٩)

أقوال بعض المفسرين أن الوليد هو المراد من قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾:

وكون الوليد بن المغيرة هو النموذج المقصود فيها جاء في هذه الآيات من خبائث الصفات، وأرذل الرذائل محل اتفاق إجماعي من المفسرين.

قال الإمام فخر الدين الرازي: أجمعوا على أن المراد هنا -أي باعتباره نموذجا- الوليد بن المغيرة، وقال القرطبي: والمفسرون على أن المقصود هو الوليد بن المغيرة المخزومي وقال ابن كثير: وهذا المذكور في هذا السياق هو الوليد بن المغيرة المخزومي، أحد رؤساء قريش لعنه الله.

كان موقف الوليد ومن ورائه ملأ قريش بعد أن أنهى الوليد قصته لسان دعاية للنبي ﷺ ولرسالته:

ولما انتهى الوليد إلى ما انتهى إليه من قول الزور والافتراء على الله ورسوله ﷺ فرح البلهاء من ملأ قريش وتفرقوا إلى السبل والطرقات، ومنافذ القادمين إلى مكة للتجارات أو

للحج، يذكرون لهم أمر رسول الله ﷺ ويحذرونهم منه، ولكن الله تعالى جعلهم ألسنة نشر ودعاية لدعوة الإسلام ورسالته، وسرى الحديث عن رسول الله ﷺ في الناس، يدخل إلى منازلهم، ويلج عليهم محافلهم وأنديتهم، وارتفع الهمس إلى جهرة القول عن دعوة محمد ﷺ ورسالته التي جاء بها من عند الله ليقوم الناس فيما بينهم بالقسط في ظل عقيدة التوحيد، وخلع الأنداد، وإخلاص العبودية لله وحده، والتحرر الفكري والاجتماعي الذي يعطي كل إنسان حقه في العيش الكريم وحقه في إطلاق عقله وإضاءة قلبه وإشراق روحه.

واشرأبت الأنظار هنا وهناك تتطلع إلى رؤية النبي ﷺ والاستماع لما أنزل عليه من القرآن المبين، فلما خرج إليهم بنفسه داعيا إلى الله، مبلغا رسالة ربه بعد أن سدت قريش منافذ قبول الهداية على نفسها، خرج مهيَّأً للاستماع إليه، ولقي ﷺ الناس ودعاهم إلى الهدى، فكانوا بين مباعد، ومقارب، وقليل منهم من يفتح قلبه للهداية فيقبل الحق مؤمنا به، وكثير معرض ينظر ويتفكر.

جولة في هذه الآيات كما عرف عن معالم الشر الفاجر في نماذج الخبث البشري أينما كان:

والآيات التي أجمع المفسرون على أنها نزلت في الوليد بن المغيرة باعتباره نموذجا لأخبث لون من شرور البشرية التي تنتابها في أجيالها المتعاقبة، وبيئاتها الاجتماعية المختلفة تأسيا بهؤلاء الشريرين من نماذج الانحراف البشري، الذين أوتوا من أسباب الدنيا مصادر قيادة الجماهير والغوغاء، قيادةَ طغيان كفور، وفجور مستكبر، واستبداد ظلوم - تصف هذا الطاغية العنيد بأوصاف لا تقصد إلى اختصاصه بها، ولكنها تستهدف تصوير الشكول والصور في الأفراد والجماعات التي تصب في قوالبها هذه النماذج الخبيثة وتوضع في إطارها معالمه.

والآيات الحكيمة المحكمة تبدأ بلون من التهديد المرعب، زجرا لغرور الفجور الذي أفعمت به نفس هذا الطاغية العنيد، فيقول الله تعالى مخاطبا نبيه ﷺ وهو الذي واجه عتو طغيان هذا الكفور وطغيان أمثاله من أحلاس المادية الوثنية:

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾

ليكون تهديد نماذج الفجور الوثني بما يصب عليهم من النكال والوبال وشدة العذاب مصحوبا بإشراق الأمل في نفس الداعي إلى الله رسوله الصادق الأمين محمد ﷺ، وحافزا من حوافز الصبر على مكاره الطغاة وإذايتهم، ودافعا

من دوافع مضاء العزائم في المضي قدما بسير الدعوة وتبليغ الرسالة، ووعدا بالنصر المؤزر على جند الباطل مهما تجمعوا وتألبوا، وعاملا من عوامل تثبيت اليقين في نفوس عامة المؤمنين وهم في غمرة البلايا والمحن.

والتهديد في هذه الآية بَيِّن في أسلوبها المعجز بروعة بيانه مع الإِيجاز المحكم، فالله تعالى يقول لنبيه ﷺ، يسليه ويخفف عنه عبء ما لقي ويلقى من شدائد المحن في دعوة هؤلاء الفجار من عبيد الوثينة المادية المتهاوية، فكأنه قيل له ﷺ: لا تُحمِّل نفسك نَصبَ التفكير في صد تيار الطغيان في هذا الفاجر الأثيم، ولا يمتلئن قلبك هما بدفع سفاهته وغروره، ولا تشغلن بالك به، وامض في طريقك هاديا مرشدا، ودعني وإياه فأنا وحدي كفيل بردعه ردعا ينزل به نكال الآخرة والأولى.

أسلوب الآيات في تهديده المرعب جرى على المعهود في المخاطبات عند مناسباتها:

وأسلوب الآيات في التهديد المزمجر جرى على المعهود في طرائق تخاطب الناس بعضهم مع بعض، وهو نهج القرآن في مخاطباته جريا على السنن المألوف، ليكون أفهم وأبلغ في الوصول إلى الغرض المقصود.

يقــول الرجل القوي الحامي ذمــار أمته، وهو يرى فاجرا يقتحم حماها، ويثلم شــرفها، ويخــدش كرامتها لمن يغار ولا يتمكــن من رد الفجور: دعني له وحدي، فأنا قدير على قهــره وإذلالــه والتنكيل به، ولله المثــل الأعلى. ثم ذكرت الآيتان الثانية والثالثة

﴿ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴾

إن هذا الطاغية الفاجر في كفره لم يكن طغيانه وفجوره عن مظاهر في حياته تدعوه إليهما، وإنما كان فجوره وطغيانه عن فطرة خبيثة مولودة معه تَكفُر الإنعام، وتنكر الإحسان، فهو قد أحســن الله إليه إحســانا غامرا، وأنعم عليه إنعاما فائضا، فجعــل له مــالا ممدودا لا ينقطــع، عم أصنــاف المال، وطم أرجاء الحياة، وكثر وغمر، ورَزَقه بنين كثيرين، يحتفون به، فــلا يفارقونه لحاجة، فهــم أغنياء بثراء أبيهــم، وهو مأنوس بهم، فرح بوجودهم حوله، مستقر الرضا برؤيتهم.

كل وصــف ورد فــي الآيــات هــو معلــم مــن معالم الفجور النموذجي الخبيث:

وفي تخصيص الإنعام عليه بالبنين نكتة لطيفة بالنسبة لهــذا الطاغية وبيئتــه ومجتمعه، وما كان معروفا مشــهرا لدى قومــه من كراهية إنجاب الإناث وحب إنجاب البنين،

فكان حريًّا في شـرعة الإِنصاف أن يكون شـكارا بنعمة الله عليـه، ولكنه لخبيث فطرته وسـوء نحيزتـه بدل نعمة الله عليه كفرا، وأحل نفسه وقومه دار البوار، فاستكبر وتجبر، وطغى بنعمة الله وفجر، وناهض الحق، وقاوم دعوة رسـول الله ﷺ، فقـد أفادت [الآيات] أن الله تعالى بسـط له الجاه العريض، ومد له المال الكثير، ووطد له الرياسة في قومه، وأطـال عمره فيهم، وأعلى كلمته عندهـم، فأتم عليه نعم المـال والجاه والولد، وهـذا هو الكمال عنـد أهل الدنيا، لاسيما الماديون الوثنيون ثم جاءت الآية الخامسة:

﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾

تُقـرر أن هذا الطاغية العنيد - مع هذا السـوء الذي أثقل طبيعة حياته - شِره النفس، جموعا للدنيا، منوعا لا ينفقها في خير قط، طموع منهوم لا يشبع، لا يكاد يفرغ من جمع حتـى يتجـه إلى جمـع، يطلب زيـادة مما عنده مـن المال والبنين وبسط العيش.

ثم جاءت الآية السادسة

﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِأَيَٰتِنَا عَنِيدًا﴾

تزجره عن الانسياق مع مطامع نفسه الخبيثة، وهو على ما عليه من خبث الطوية ومكر السوء ثم تقرر الآية الكريمة

بعد هـذا الزجر بيان الحكمة في إنـكار طمعه في الزيادة، والتعجيب من حاله، وغروره في فجره وكفوره.

وفي الآية تيئيس له من الزيادة، ووعيد بالنقصان، ولهذا قال المفسـرون ولم يـزل الوليد في النقصـان بعد قول الله تعالى: ﴿كَلَّآ﴾

حتى افتقر، وخرف، ومات كفورا فقيرا.

خصائص هذا النموذج المعاند الخبيث:

ووصفـه فـي الآية بالعنيـد لآيات الله بيانٌ لشـدة فجوره وطغيانـه ومجاوزته كل عتو وإثم، فالعنيد مبالغة من العناد وهو مجـاوزة الحد، وأريـد به هنا الذي عـرف الحق بقلبه وعقلـه وأنكره بقوله وفعله واعتقاده، اسـتكبارا وغلوا في الجبـروت والكفر، وفـي تقديم المتعلـق، (لآياتنا) على متعلقه (عنيدا) تخصيص، كأنه قيل وإنه عنيد لآياتنا نحن الذين أنعمنا عليه بشتى النعم، لا لآيات غيرنا ممن لم يكن في اسـتطاعته أن ينعم عليه بشـيء، وفي هـذا التخصيص تسـجيل لبالغ كفره، وشـدة عتـوه وفجوره وسـوء عناده، قال الإمام الرازي: «وفي هذه الآية إشارة إلى أمور كثيرة من صفاته:

إحداها : أنه كان معاندا لجميع الدلائل الدالة على التوحيد والعدل والقدرة الإلهية وصحة النبوة، وصحة البعث، منكرا لها.

ثانيها : إن كفره كان كفر عناد، كان يعرف هذه الأشياء بقلبه، إلا أنه ينكرها بلسانه، وكفر المعاند أفحش أنواع الكفر.

ثالثها : إن قوله تعالى :

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا﴾

يدل على أنه من قديم الزمان كان على هذه الحرفة والصنعة الخبيثة.

رابعها : إن قوله تعالى :

﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا﴾

يفيد أن تلك المعاندة كانت منه مختصة بآيات الله تعالى وبيناته، فإن تقديره : إنه كان عنيدا لآياتنا، لا لآيات غيرنا، فتخصيصه هذا العناد لآيات الله تعالى، مع كونه تاركا للعناد في سائر الأشياء يدل على غاية الخسران وفساد الجبلة».

ثم جاءت الآية السابعة :

﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾

تقرر ما أعده الله لهذا الطاغية من سوء العذاب في الآخرة إلى جانب ما أرهقه به من سلب ما أنعم به عليه في الدنيا، كما أفادته كلمة الزجر (كلا) عن الطمع في الزيادة، وأنه سيعامل بنقيض مقصوده من النقصان والسلب بعد العطاء، والإرهاق تحميل الشدائد وتكليفه إياها، (الصعود) مثل لما يلقى المرهق من أثقال العذاب ومشاقه وصعائده مما لا يطاق مثله، وهو مأخوذ من قولهم: عقبة صَعود وكَئود، أي شاقة المصعد، والمعنى أن الله تعالى توعد هذا الطاغية بأنه سيجد عذابا شديدا لا يطيقه، جزاء عناده في كفره وجحوده بإنعام الله عليه.

ثم ذكر الله تعالى حال هذا الطاغية في عتوه وعناده في كفره، وأن كفره كان كفرا مهيأً مقصودا مرتبا، قائما على التفكير والتقدير، فالطاغية العنيد قد فكر وتدبر لا ليستبين الحق فيعتقده، والهدى فيتبعه ويؤمن به، ولكنه فكر ودبر، وقدر وهيأ أمورا يرد بها الحق الذي عرفه واعترف به، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾

ثم عجب العقلاء من أمره في تفكيره وتدبيره، سخرية واستهزاء منه لأنه زعم أنه بتفكيره وتدبيره، وتهيئته ما هُيِّئ في نفسه من لغو وفساد مما يؤثر في سير رسالة الحق،

قال تعالى: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾

أي هلـك وأهلك، وقهر وغلب على أمره، وذل بعد عزة فـي قومه، وافتقر بعد الثراء والغنـى، وطرد طردًا أبديا من رحمـة الله ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ علـى أي حالـة هيأ ما هيأ من الزور والبهتان، وركيك التفكير وسفسـاف التدبير، ثم أكد الله تعالى قهره ولعنته وما باء به من الخسران، فقال جل شأنه:

﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾

أي مـع كونـه هيأ في نفسـه كلاما يرد به علـى قومه في أمر محمـد ﷺ يأثرونه عنـه ويلْقَوْن به وفود العـرب محذرين، لم يسـتطع أن يقنع نفسـه بما فكر وقدر ودبر وهيـأ، فرجع وهو مغيـظ محنق ينظر ويفرغ النظر فـي أمره ﷺ، ويطيل التفكير والتدبير، فيزداد غيظًا وحنقًا، وكلما اشتد غيظه وحنقه ضاقت بـه الدنيا، وضاق بهـا، وقهره الغيـظ - (عَبَسَ)قطب جبينه، واسـود وجهه، واكفهر سمته، وتغير رسـمه، و(بسر) كالحًا ممسـوخًا عن إنسـانيته، وأخذ عن نفسـه وتفكيره، واستولى عليه الدهش، وتملكته الحيرة، فلم يدر ما يقول في أمر محمد ﷺ، وهـو قـد أعلن علـى قومه جهـرًا، وأوهم مـن حوله وهم يستقون رأيه، ويستنزلون وحي شيطانه أنه ما من شيء يتهمون بـه محمدًا ﷺ مما زعمـوا عليه إلا عرف أنـه باطل، وكأنه قد

سـدت دونه منافذ التفكير والتدبيـر والتقدير ، فولى عن قومه معرضًا مستكبرًا مغيظًا محنقًا ، قد أحرق الحق قلبه ، وهو يقول كمـن يرمي بالقول رميًا لغير قصد ، لا يبالي أن يكذب نفسـه ، ولا أن يكذبـه قومـه ، ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ وكان قد قال لقومه وهو يحاورهم ويستطلع ما عندهم في أمر محمد ﷺ ، فيما قال لهم : يزعمون أن محمدًا ساحر ، لا والله ما هو بساحر وقد رأينا السُّحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم .

لحظة من الخجل تغير رأي هذا الطاغية العنيد:

وكأن الطاغيـة قد تداركه شـيء من نفحات الإنسـانية ، فأخذه من الحياء والخجـل ما يأخذ الذين بقيت فيهم بقية مـن عقل ، وتذكر أنه كان قد نفى السـحر عن محمد ﷺ ، فقال ما حكاه الله عنه : ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ .

قال الإمام الرازي : والمعنى إن هذا قول البشـر ، ينسـب ذلـك إلـى أنـه ملتقط مـن كلام غيـره ، ولـو كان كما قال لتمكنوا من معارضته ، إذ طريقتهم في معرفة اللغة متقاربة .

العناد أكبر طرائق الفجور:

ثـم قال الرازي : واعلم أن هذا الكلام يدل على أن الوليد إنمـا كان يقول هذا الكلام عنادا منه ، لأنه روي عنه أنه لما سـمع من رسـول الله ﷺ (حم السـجدة) ، وخرج من عند

رسول الله ﷺ، قال: سمعت من محمد كلاما ليس من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه يعلو ولا يعلى. فلما أقر بذلك في أول الأمر علمنا أن الذي قاله هاهنا من أنه قول البشر، إنما ذكره على سبيل التمرد والعناد لا على سبيل الاعتقاد، وفي سورة (ن)- وهي من طلائع السابقات المكيات في سور القرآن- آيات أقرب ما تكون في معانيها وأهدافها إلى آيات سورة (المدثر)، قربًا يكاد يكون وحدة تؤلف نموذجًا متكامل الصورة في إبراز نوع من الطبائع البشرية، يمثل في الحياة أخبث أنواع الشرور الكامنة في نفوس بعض الأفراد والجماعات على مر الزمان واختلاف الأجيال وتطور الأفكار.

وقد نقلنا إجماع المفسرين على أن المقصود بآيات (المدثر) التي سقناها مبتدأة بقوله تعالى:

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾

باعتباره نموذجًا لأخبث أنواع الشرور النفسية والاجتماعية والعقلية هو الوليد بن المغيرة المخزومي.

وعلى أساس هذا النقل، وما توحي به الآيات، وما يعطيه جوها وأحداثها جرينا في تحليلنا للآيات وفي تفسيرها بما يظهر صورة النموذج البشري الشرير، فيجعله مثلاً

مضروبًا في شاهد الحياة ووقائع الأحداث في كل زمان، وكل مكان، وكل جيل من البشر.

وآيات سورة (ن) نزلت في الوليد عند الجمهور:

بيد أن المفسرين اختلفوا في المراد من الآيات في سورة (ن) باعتباره نموذجًا لمعانيها وحقائقها وأهدافها وآثارها، قال الإمام القرطبي: ومعظم المفسرين على أن هذا أنزل في الوليد بن المغيرة وكان يطعم أهل منى حيسًا ثلاثة أيام، وينادي: ألا، لا يوقدن أحد تحت برمة، ألا، لا يدخنن أحد بكراع، ألا ومن أراد الحيس فليأت الوليد بن المغيرة، وكان ينفق في الحجة الواحدة عشرين ألفًا وأكثر، ولا يعطي المسكين درهمًا واحدًا، فيقال (مناع للخير) وفيه نزل:

﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ (فصلت: ٦، ٧)

جولة تحليلية في تفسير آيات سورة (ن) وما فيها من معالم نموذج الشر في البشر:

وإذا كان هذا الوصف (مناع للخير) وصفًا من أوصاف سورة (ن) تدمغه به القصة المذكورة التي تبين أنه ينفق ماله رئاء للناس، وتسميعًا بذكره، فإن سائر الأوصاف

المذكورة فيها منطبقة عليه، قال الله عز شأنه:

﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ١٠ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ١١ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ١٢ عُتُلِّۢ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ ١٤ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ (القلم: ١٠ - ١٥)

هذه الآيات تضمنت عدة أوصاف وُصِفَ بها طاغية المادية الوثنية وكان خاتم هذه الأوصاف يشبه أن يكون تعيينًا بأخص الصفات للوليد بن المغيرة وأنه هو المراد هنا في آيات سورة (ن)، كما كان هو المراد هناك في آيات سورة (المدثر) باعتباره نموذجًا في الموضعين لأخبث أنواع الشر النفسي والاجتماعي في الطبائع البشرية، وهذا الوصف المعين بالاختصاص هو قوله تعالى:

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ﴾

فلم يعرف من طواغيت الوثنية في قريش بشهرته بكثرة المال والبنين مثل ما عرف وشهر الوليد بن المغيرة، وقد كان هذا الوصف محور فجوره وطغيانه الذي دارت عليه معاني آيات (المدثر) كما بيناه في تفسيرنا التحليلي لها.

وقد افتتحت آيات سورة (ن) بنهي النبي ﷺ، نهي تعليم وتشريع عام، عموم الأزمنة والأمكنة والأجيال والأحداث بعد تمهيد بنهي عام، أجمل تحته أقبح وصف اتصف به إنسان، فقيل: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ والمكذبون لرسالات الله هم الذين لا يرعون في حياتهم عهدًا ولا يعرفون قانونًا، ولا يستمسكون بدين من أديان الحق وشرائع الهداية، ولا يطوون صدورهم على ضمائر تردعهم عن الانغماس في موبقات الحياة ومظالمها ومفاسدها.

وهذا النهي قصد به إلهاب شعور رسول الله ﷺ وتهييج وجدانه، ليكون في موقفه من مداهنة الكافرين كعهد الحياة به أشد وأصلب، وأسمى من أن يتنزل إلى خداع رغائبهم.

المَعْلَم الأول من خصائص نموذج الفجور:

ثم جاء تفصيل بعض هذا الإجمال بتعيين نموذج الطبيعة البشرية بوصفه وخصائصه الشريرة المعينة له فقيل:

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾

والحلاف مبالغة في كثرة الحلف وامتهان القسم فيما رَخُص وسَفُل وهان واستُهين، ولا يقع ذلك إلا ممن تولى حياة الدناءات وعاش فيها وهانت عليه إنسانيته

وانثلمت كرامته، وانعدمت من النفوس الثقة به، وشهر بينهم بالكذب والغش والخداع والخيانة، وخبث الطوية، وملاحاة الناس في معاشرتهم والتحايل عليهم بما يكون وما لا يكون، وما ينبغي وما لا ينبغي.

وليس وراء ذلك وضاعة أو مهانة أو زراية بالنفس أو حقارة، أو ذلة ودناءة أو رذالة أو نذالة. فالتلازم بين المبالغة في الحلف وكثرته وامتهان القسم، وبين الوضاعة والمهانة في جميع صورها من رذائل الطباع وسفالة الأخلاق- تلازمٌ لا تنفك روابطه النفسية، حتى صار عنوانًا على فساد الفطرة ودنس الطبيعة.

المَعْلَم الثاني من خصائص هذا الطاغية:

ثم جاء بعد هذا الوصف وصف آخر يحمل خصيصة دامغة لهذا الطاغية في صورته النموذجية، ومعه قرينه الذي لا يفارقه، فكانا في تمثيل نموذج الإفساد في الأرض كأنهما غصنان من عوسجة(١٥) الشر الوخيم، يرتبطان بما قدمته الآية الأولى من وصفي المهانة والمبالغة في كثرة الحلف ارتباط الفرع بأصله فقيل: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ والهماز هو

(١٥) العوسجة: واحدة العوسج، وهو جنس نبات شائك. (المجلة)

العياب الذي يتسقط العيوب فيلصقها بالبرآء، ويتلقطها من أفواه الشريرين ليضعها على هامات الخيرين، حتى يتساووا معه في شَرِّيته، كما قال تعالى في وصف طبيعة هؤلاء الباغين للناس التورط في حمأة الشر والفساد معهم، حتى تعالوا في سوء أطماعهم أن يتناولوا الشمس بأيديهم ليطفئوا نورها بأفواههم، فعتوا عتوًا كبيرًا، وودوا لو أن رسول الله ﷺ مالأهم ليمالئوه، وداهنهم فيداهنوه بعد أن دمغهم بتكذيب الأنبياء والمرسلين

﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾

(القلم: ٩)

وقد فسره أئمة السلف من أحبار الأمة بنحو هذا، فقال الربيع بن أنس: ودوا لو تكذب فيكذبون، قال ابن عباس وعطية العوفي، والضحاك والسدي: ودوا لو تكفر فيتمادون على كفرهم لتكون معهم على سواء، حتى لا يروا لك فضلاً عليهم، عن ابن عباس: ودوا لو ترخص فيرخصون.

وقد أخبر الله تعالى في سورة نزلت برسم هؤلاء المفسدين العيابين، الهمازين للناس، بأن لهم الويل، أي الخزي والنكال في الدنيا، والعذاب الشديد في الآخرة، فقال تعالى:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾

(الهمزة: ١)

قال ابن عباس: هم المشاءون بالنميمة المفسدون بين الأحبة، ومعناه: أنهم الباغون للبرآء العيب، الطعانون في الأعراض، النهاشون للأنساب، الغمازون للأخلاق، لهم ألسنة غذيت بالبذاء وسوء القول، لا يسلم منهم جليس ولا صاحب، مبغوضون لكل من يعرفهم، كالمجزوم يفر منه كل من يراه، ففي مسند الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد بن السكن أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بخياركم؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الذين إذا رُءوا، ذُكِرَ الله عز وجل».

ولا يهمز الناس ويعيبهم إلا من كان في نفسه شريرًا حقيرًا، دنيء الطبع، ليس له من خلائق الخير شيء. ثم قال: «ألا أخبركم بشراركم؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «المشاءون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبرآء العنت» ليس لهم من الشرف ما يردعهم عن الوقوع في الناس، لا يبالون أن يكون ما قد قالوا حقًا أو باطلاً.

والذي يشغل نفسه بتتبع ما يعيب به الناس ليشينهم في مجتمعهم، ويحقرهم بين قومهم، ويسقط مروءاتهم في

بيئاتهم، لا يزال دأبه وهجيراه الإفساد بين كل متوافقين، والتفريق بين كل متحابين، والتعكير بين كل متصافيين، لأن ارتباط الناس بالتوافق والمحبة ومعاشرتهم بالمصافاة والمودة يغيظ الهماز المشاء بالنميمة، لسوء مخبره، وكراهيته لكل خير يرى عليه الناس.

وهذا هو المشاء بالنميمة الهماز اللماز، وصاحب هذه الخليقة الدنيئة مبغض محقور في الدنيا، مطرود من رحمة الله في الآخرة، لا يريح رائحة الجنة، روى مسلم في صحيحه عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قتَّات» والقتات: النمام. وروى الإمام أحمد في مسنده قال: مر رجل على حذيفة بن اليمان فقيل إن هذا يرفع الحديث إلى الأمراء، فقال حذيفة سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة نمام».

المعلم الثالث والرابع من خصائص نموذج الفجور والعناد:

ثم عقبت الآية الكريمة من سورة (ن) هذه الأوصاف بثلاثة أوصاف تصم الطاغية العربيد بأخبث أوصاف نماذج الطبيعة الشريرة في طبائع البشر، فقيل: ﴿مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ وهو قادر عليه يمسكه عن مواضع البر والإصلاح، وينفقه تبذيراً

وإسرافاً في مواطن السوء والإفساد، فهو في حقيقته شحيح بخيل، لا تنتفع الحياة الصالحة من وجوده بشيء، ولا يصل إلى أحد منه خير، يصد عن الحق، ويعاند الهدى، ثم هو بعد ذلك ﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ ظلوم كفار، لا يقف في ظلمه وتعديه عند حد، بل هو في بطشه واستبداده متجاوز لكل حد، مبطل كذوب، فاجر عنيد، كثير الإثم في محاربة الله ورسوله، لا يتوقى شراً، ولا يتحذر من بغي ولا يتحرز من عتو، فهو مجمع القبائح والفضائح، وموئل الدنايا والرذائل.

المعلم الخامس من خصائص نموذج الفجور:

ولا تنهي الآيات وصفها بهذه الأوصاف المهينة حتى تتلقاه مما شوَّه خلق الله له في صورته وسمته وسحنته الخلقية، فقيل ﴿عُتُلٍّ﴾ أي جاف، غليظ الطبع، شرِه، بطين، أكول، شروب، فاحش العشرة، متفحش سيء المعرفة، لئيم النفس، خبيث الطبع، حقود كنود، يخاصم في غير حق فيفجر، ويعتدي فلا يبالي أن يخون ويغدر، ثقيل الظل جحود، كفور لكل نعمة، نكار لكل إحسان، وهو بعد ذلك الذى تقدم من أوصاف السوء والقبائح ﴿زَنِيمٍ﴾ أي مشهر بلؤم الطبع ودناءة النفس، وسوء الخلق، يتحامى الناس القرب منه اتقاء بغيه وعدوانه وبذائه، وهذا الوصف

القبيح الذي أربى في فحشه على فحش ما سبقه من نعوت الخبث والشر، يجعل المتصف به يستشعر المهانة في نفسه، فيتكلف التعاظم الكذوب ليداري سوءاته، ويشمخ مستكبراً ليخفي مهانته، ويسرع إلى الظلم يرتكبه وإلى الطغيان يدرعه، ليغطي حقارته وضالة شخصيته، فالزنيم هو الشرير الظلوم عظيم الشر الفجور، الذي يأكل فلا يشبع، ويمنع الخير أن يصل إلى غيره، ولو كان آتيا من غيره، يمنع غيره أن يصل في سعيه إلى خير، وفي حديث زيد بن أسلم أن النبي ﷺ قال: «تبكي السماء من رجل أصح الله جسمه، ورحب جوفه، وأعطاه من الدنيا بعضا، فكان للناس ظلوما، فذلك العتل الزنيم».

وهذان الوصفان (عتل زنيم) متلازمان في وجودهما، فالزنيم عتل، والعتل زنيم، وهما جماع الرذائل والقبائح، روى مسلم في صحيحه عن حارثة بن وهب قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟» قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: «كل ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار؟» قالوا: بلى، يا رسول الله قال: «كل عتل جواظ مستكبر» وفي رواية عنه «كل جواظ زنيم متكبر».

وفى حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة جواظ ولا جعظري، ولا العتل الزنيم» فقال رجل: ما الجواظ؟ وما الجعظري؟ وما العتل الزنيم؟

فقال رسول الله ﷺ: «الجواظ الذى جمع ومنع، والجعظري: الغليظ، والعتل الزنيم: الشديد الخلق، الرحيب الجوف، المصحح، الأكول الشروب، الواجد للطعام، الظلوم للناس» (رواه ابن أبي حاتم في تفسيره).

قال القرطبي: فهذا التفسير من النبي ﷺ في العتل قد أربى على أقوال المفسرين، وكان من الحق على الإمام القرطبي أن يضيف إلى وصف (العتل) قرينه في الآية والواقع وصف (الزنيم) وهذا صريح في حديث مسلم في روايتيه، وفى حديث ابن مسعود، فالنبي ﷺ كما فسر (العتل) فسر الزنيم، وعند تفسيره ﷺ يجب الوقوف لغة ومعنى وحقيقة، ولا يصح مطلقا تجاوزه إلى غيره من الآراء والأقوال.

ومن ثم أبى بعض أهل العلم تفسير (الزنيم) في الآية بالدَّعيّ الذي ولد لغيره وألحق بنسب رجل فعد في أبنائه، وقد أُبِنَ بهذا الوليد بن المغيرة المخزومي، والذين أبوا هذا التفسير من أهل العلم قالوا كما عبر عنهم الإمام محمد بن

إسحاق في سيرته: ولم يقل الله تعالى: زنيم لعيب في نسبه لأن الله لا يعيب أحدا بنسب، وهذا كلام حسن مستقيم الطريقة، يتلاءم مع أدب الإسلام وشرائعه.

وأنكاح الجاهلية فيها أشياء لا تدخل تحت ضابط اجتماعي يضبطها، ولا تتقيد بوضع ديني يوجهها، ففيها الصحيح المشروع، وفيها السفاح الباطل، فلا معنى لتخصيص إنسان بعينه، وتعييره بذلك، ومن ثم كانت الأنكحة الموثوق بصحتها عرفًا وشهرة موضع شرف وفخر وفضيلة، ولذلك قال النبي ﷺ: «خرجتُ من نكاح، ولم أخرج من سفاح، ولم يصبني من سفاح الجاهلية شيء».

وفي قول الله تعالى: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى أن وصف هذا الطاغية بالعتل الزنيم بعد وصفه بما تقدم من النقائص والقبائح قد جمعت له مخابث الصفات ومقابحها.. ويقول الإمام الرازي: قوله: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ معناه أنه بعد ما عد له من المثالب والنقائص فهو عتل زنيم، وهذا يدل على أن هذين الوصفين، وهو كونه عتلاً زنيماً أشد معايبه، لأنه إذا كان جافياً غليظ الطبع قسا قلبه واجترأ على ارتكاب كل معصية.

المعْلَم السادس:

ثم جاء بعد هذه الأوصاف والمثالب ما يبين أن ما أوتيه هذا الطاغية من النِّعَم فكفره وجحد إحسان الله إليه فيه، وذلك قوله تعالى:

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾

هو الوصف الذي كان مظهر طغيانه وفجوره، واغتراره بما أوتي من نعم، وكفران النعمة إذا انضم إلى كفران المنعم كان من أعظم النقم الموجبة لمساخط الله وبطشه، والتي تودي بصاحبها فتهلكه من حيث يريد السلامة، وتذله من حيث يريد العزة.

وهذا الوصف كان هو الوصف المعين هنا في آيات سورة (ن) لإرادة الوليد بن المغيرة بموضوعيته لأوصاف الآيات كإرادته بموضوعية أوصاف آيات (المدثر)، لأن هذا الوصف كنفسه إذ جاء هناك في أوصاف الطاغية بصورة الامتنان في قوله تعالى:

﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا﴾

ولم يشتهر في قريش بكثرة المال والبنين أحد شهرة الوليد بهما، وكل الذين ذكرهم المفسرون لنزول آيات (ن) فيهم: الأخنس بن شريق، والأسود بن عبد المطلب

الأسدي، وعبد الرحمن بن الأسود، وأبا جهل، لم يكن فيهم من عرف بما عرف به الوليد في كثرة المال والبنين.

فالوليد بن المغيرة هو نموذج الأوصاف والقبائح التي ذكرت في السورتين، سورة (المدثر) وسورة (ن)، فلا ينبغي العدول عن هذا الظاهر إلى أقاويل أخرى.

ثم عقبت الآيات هذه الأوصاف وما ختمت به من الغرور الفاجر بنعمة الله التي أضفاها عليه من المال الوفير وكثرة البنين - وهما نعمة النعم في الدنيا وزينتها التي يتنافس عليها أهلها - بما كان نتيجة طبيعية لتلك المثالب والنقائص الخُلقية والخلقية والقبائح الاجتماعية، من اجترائه على خبيثة الخبائث بوصف آيات الله إذا تليت عليه وسمعها بأنها أساطير الأولين وخرافاتهم وتكذبهم في أسمارهم، وهذا كالذي جاء في سورة (المدثر) من قول الطاغية فيما حكاه الله عنه:

﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾

(المدثر: ٢٤، ٢٥)

وهذا التوافق في المعنى بين ما جاء في سورة (المدثر) من وصف القرآن باطلاً بأنه سحر يؤثَر، وأنه قول البشر، وبين ما جاء في سورة (ن) من وصفه باطلاً بأنه أساطير

الأولين هو الدليل على أن الآيات في السورتين تعني نموذجًا واحدًا للشرور، تمثل في شخص الوليد بن المغيرة المخزومي لما كان متوافرًا فيه من عتو الطغيان وفجور الكفر والاغترار بما أوتي من مال وبنين.

إشهار نموذج الشرور والرذائل بما تشهر به البهائم:

ثم بعد أن أنهت الآيات وصف الطاغية في عناده بالقبائح التي لازمته في حياته، ووصمته في تاريخه، وطاردته بعد هلاكه ذكر الله تعالى ما توعده به باعتباره نموذجًا لتلك القبائح من الخزي في الدنيا والعذاب المهين في الآخرة، فقال:

﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾

(القلم: ١٦)

ومعنى النموذجية في تصوير من اتصف بهذه القبائح أن كل ما يتصور أن يقع على الصورة الفردية لهذا النموذج هو واقع في الدنيا والآخرة بجميع من كان على شاكلته من الماديين الوثنيين، أينما وجدوا وحيثما كانوا في أي زمان ومكان ومن أي جيل.

والوسم في اللغة العلامة المحسوسة، تكون في الحيوان من كية بالنار، أو خدش في عضو من أعضائه، أو قطع في أذنه يُعْلَم بها ليعرف، والخرطوم هو أنف الحيوان، ثم

استعير لأنف الإنسان كما يستعار المشفر للشفة، وهذا لتقبيح الوصف به.

قال أبو العباس المبرد: وقد ذكر هنا - أي الخرطوم - على سبيل الاستخفاف، لأن التعبير عن أعضاء الإنسان بالأسماء الموضوعة لأشباه تلك من أعضاء الحيوانات يكون استخفافًا، كما يعبر عن شفاه الإنسان بالمشافر، وعن أيديهم وأرجلهم بالأظلاف والحوافر.

والأنف أكرم موضع في وجه الإنسان، والوجه أشرف وأكرم عضو في جسم الإنسان، فالأنف أكرم وأشرف عضو في جميع أعضاء الإنسان، ولهذا كان مكان العزة، والأنفة والحمية، واشتقوا منه الأنفة، وهي العزة والتسامي عن الدنايا والصغائر، وإباية الضيم والاستنكاف من الرذائل، ومن ذلك قولهم: الأنفة في الأنف، وقالوا: حمي أنفه، أي عز وتأبى على المهانة، ومدحوا به فقالوا: فلان شامخ العرنين، والعرنين الأنف، وهذا كما قال القائل: شم العرانين، أخذًا من قول الشاعر: «شُمُّ الأنوفِ كريمةٌ أحسابهم»، كما ذموا به، فقالوا في الذليل المهين، الذي لا يدفع الضيم عن نفسه ولا عن حرمه: جدع أنفه، ورغم أنفه، أي ذل وخضع وقبل ما لم يكن مقبولاً.

والآية من قبيل الكناية، فالمقصود التعبير بالوسم وإرادة لازمه، وهو الشهرة، وهي هنا شهرة بالمذام والقبائح، لإفادة غاية الإذلال والمهانة في الدنيا والنكال والخزي وسوء العذاب في الآخرة.

قال الإمام الرازي: وعندي في معنى الآية احتمال، وهو أن ذلك الكافر إنما بالغ في عداوة النبي ﷺ وفي إنكار الدين الحق، والطعن فيه بسبب الأنفة والحمية، فلما كان منشأ هذا الإنكار هو الأنفة والحمية كان منشأ عذاب الآخرة هو هذه الأنفة والحمية، فعبر عن هذا الاختصاص بقوله:

﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾

فالمقصود بهذا الوعيد إشهار قبائح الطاغية وكسر شوكة عنجهيته وغروره بتعرية نقائصه وكشف سوءاته، حتى يتعالمه الناس ويعرفونه بما دفعه به القرآن، فلا يخفى أمره على أحد كما لا تخفى الحيوانات الموسومة على خراطيمها.

قال القتيبي: تقول العرب للرجل يُسَبّ سبة قبيحة: قد وسم ميسم سوء، والمراد أنه ألصق به عار لا يفارقه.

ولا شك أن هذه المبالغة في مذمة هذا الطاغية العنيد

بقيت على وجه الدهر تلازمه وتلاحقه بالخزي والإذلال في حياته، وباللعنات والنكال بعد هلاكه.

قال القرطبي: وكل هذا أنزل في الوليد بن المغيرة، ولا نعلم أن الله تعالى بلغ من ذكر عيوب أحد ما بلغه منه، فألحق به عارًا لا يفارقه في الدنيا والآخرة.

وقد جرينا في عرض معاني هذه الآيات من سورة (ن) وبيان حقائقها في تحليل أبرز شخصية نموذجية، بقبائحه ورذائله على قول معظم المفسرين الذين قالوا: إن المقصود بها هو عين المقصود بآيات سورة (المدثر) وهو الوليد بن المغيرة المخزومي، وقد رجحنا هذا بما بيناه في الآيات هنا وهناك من توافق في المعنى، ولا سيما في الوصف الموحد في السورتين، بأنه صاحب مال وفير وبنين كثيرين، يتعزز بهم وبمشاهدتهم، فإن هذا الوصف معين لإرادة هذا الطاغية في الموضعين، ومهما يكن من أمر فإن المقصود رسم صورة لنموذج من نماذج الطبيعة البشرية الشريرة في عتوها وعنادها للحق وصدها عن سبيله، ليكون هذا النموذج مثلًا مضروبًا على مدى الأزمان والأجيال وتطور الأفكار.

من زعم أن نموذج الشرور والخبائث هو الأخنس بن شريق في سورة (ن) لم يبعد:

فالذين يقولون من المفسرين: إن المقصود بآيات سورة (ن) هو الأخنس بن شريق كما جنح إليه ابن إسحاق، ورواه في السيرة عن الشعبي والسدي إنما قصد تعيين شخص بلغ من فساد الفطرة الإنسانية، ولؤم النحيزة، وعتو الجبرية، وفجور الغرور الوثني، والاستكبار العنجهي ليكون نموذجًا تتمثل فيه قبائح الطبيعة البشرية ورذائلها كما تمثلت في الوليد بن المغيرة الذي كان نموذجًا للخبائث التي وصفته بها آيات سورة (المدثر).

والأخنس بن شريق من أكابر مجرمي أشراف ملأ المادية الوثنية المتعالية بسلطان فجور الكفر، وكان من النفر الذين عرفوا بالمبالغة في إيذاء رسول الله ﷺ، وإيذاء أصحابه، وكان مسموع الكلمة بين طواغيت الوثنية، فليس باطلًا أن يكون نموذجًا من نماذج هذه القبائح التي ذكرت في آيات سورة (ن)، لكنه لم يكن معروفًا بكثرة البنين ووفرة المال وغمرة الثراء الفاحش كما عرف بذلك الوليد بن المغيرة، فذِكرُ هذا الوصف في خاتمة أوصاف نموذج الشر والإفساد يعكر على

إرادة الأخنس أو غيره من طواغيت قريش سوى الوليد بن المغيرة.

وكان الأخنس عديدًا في بني زهرة، حليفًا لهم، وليس من أنفسهم، فلعل من ذكره نموذجًا للمثالب والنقائض المذكورة في آيات سورة (ن) وَهَلَ مغترًا بوصف ﴿زَنِيمٍ﴾،(١٦) باعتبار بعض معانيه، وهو اللصيق بالقوم الذي يعد فيهم وليس من دمهم وعُصبتهم.

وكان الأخنس يجمع إلى فجور الكفر مكرَ النفاق وخبث المنافقين. قال جمع من المفسرين وفيه نزل قول الله تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ٢٠٥ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾

(البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٦)

والأخنس لقب لُقب به هذا الطاغية الكفور، واسمه

(١٦) وهَلَ: أي وهِمَ. (المجلة)

أُبَـيّ ، وإنما لقب بالأخنس كما قيل لأنه خَنَسَ بحلفائه بني زهرة يوم بدر عن قتال رسول الله ﷺ .

قال القرطبي : وكان الأخنس رجلا حلو القول والمنظر ، وجاء بعد خنوسه بحلفائه إلى النبي ﷺ فأظهر الإسلام ، وقال : الله يعلم أني صادق ، ثم هرب بعد ذلك ، فمر بزرع قوم من المسلمين وبحُمُر فأحرق الزرع وعقر الحُمُر .

قال المهدوي : وفيه نزلت

﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴾

(القلم : ١٠ ، ١١)

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾

(الهمزة : ١)

أما غير الأخنس من طغاة الوثنية الذين كانوا يتزعمون فجور الكفر ممن قيل فيهم إنهم كانوا نماذج للنقائص والقبائح التي عددتها آيات سورة (ن) ، فهم أقل صولة من الأخنس في منافسة الوليد بن المغيرة وعناده وعتوه ، وإن كانوا يغالبونه في سوء العداوة وفجور الظلم العاتي في الوقوف أمام تبليغ رسالة الله تعالى إلى عباده ، وقد عد بعض هؤلاء الذين قيل إنهم نماذج القبائح في آيات (ن) في المستهزئين الذين نزل فيهم قول الله تعالى :

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾

فهلك طغاتهم بمهلكات عاجلة قضت عليهم وطهرت الأرض من شرورهم.

قال أبو عمر بن عبد البر: وكان المستهزئون الذين قال الله فيهم:

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾

(الحجر: ٩٥)

عمَّه أبا لهب، وعقبة بن أبي معيط، والحكم بن أبي العاص، والأسود بن عبد المطلب بن أسد، والأسود بن عبد يغوث، والعاص بن وائل، والحارث بن الغيطلة السهمي، فكان جبريل مع رسول الله ﷺ، فمر بهما من المستهزئين الوليد بن المغيرة، والأسود بن عبد المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن الغيطلة، واحدًا بعد واحد، فشكاهم رسول الله ﷺ إلى جبريل، فقال: كفيتهم، فهلكوا بضروب من البلاء قبل الهجرة.

وقد رجحنا في تحقيقنا أن الوليد بن المغيرة كان هو أحق بتلك المخازي وأهلها من الأوصاف التي صورته نموذجًا للفجور العنيد والكبرياء العاتية في سورتي (المدثر) و(ن)، لأن بعض الأوصاف كانت في واقعها

خصيصة به، لا يزاحمه فيها الأخنس ولا غيره من طغاة المادية الوثنية.

وإذا انفرد الوليد بن المغيرة بغمرة الشر والفساد حتى جعلت منه نموذجًا لدنس الطبيعة البشرية، لكنه لم يترك له الميدان يجول فيه ويصول وحده، متكئًا على أريكة الغرور في زعامة العتو والفجور، بل برز له قِرْن(١٧)، يجاذبه رداء الطغيان حسدًا أن ينفرد الوليد بن المغيرة بنقمة الحياة في معاداة الحق، وأن يستحوذ على لعنات الله تعالى وسخطه وحده دون مزاحم، فانبرى له شيطان الإفساد والفساد: النضر بن الحارث الذى لم يرض له حسده وفجور كفره، أن ينفرد الوليد بن المغيرة بزعامة الوثنية، فتجتمع له قريش ممثلة في ملئها، ومن ورائهم سفهاؤها وغوغاؤها يستمعون إليه، وهو يملي عليهم ما يقابلون به وفود العرب الذين يؤمون الموسم، وهم يحدثونهم في شأن محمد ﷺ ودعوته ورسالته، خشية أن تسري هدايته إلى قبائل العرب في منازلهم ومجامع أحيائهم ومحافل مجتمعاتهم.

انتهض النضر بن الحارث بعد أن انفض سامر ملأ قريش الذين اجتمعوا فيه لمكالمة النبي ﷺ وعرضهم عليه ما

(١٧) القِرن: المثيل.

عرضوا من علياء دنياهم: مالًا، وثراء، وشرفًا، وسيادة، وملكًا وسلطانًا، في سبيل أن يكف عنهم.

وكان النضر بن الحارث بعد أن سمع مقالة الوليد بن المغيرة لملأ قريش التي يلقون بها وفود العرب قد سمع غميز الرجولية أبا جهل يقول سترًا لموقف عمه الطاغية: يا معشر قريش إن محمدًا قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وشتم آلهتنا، وإني أعاهد الله لأجلسن له غدًا بحجر ما أطيق حمله، فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه(١٨)، فأسلموني عند ذلك، أو امنعوني، فليصنع بي بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم، قالوا: والله لا نسلمك لشئ أبدًا، فامض لما تريد.

فلما أصبح غميز الرجولية أخذ حجرًا ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره، وغدا رسول الله ﷺ لما كان يغدو إليه، فقام يصلي، وجلست قريش في أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل، فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل غميز الرجولية حجره، وأقبل به نحو رسول الله ﷺ، حتى إذا دنا منه رجع منهزمًا، منتقعًا لونه مرعوبًا، قد يبست يداه على حجره حتى قذف الحجر من يديه، وقامت إليه رجال

(١٨) الفَضْخُ: كسر الشيء الأجوف، كالرأس والبطيخ. (المجلة)

قريش فقالوا: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: قمت إليه لأفعل ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل، لا، والله ما رأيت مثل هامته، ولا مثل قصرته، ولا أنيابه لفحل قط، فهم بي أن يأكلني.

تكذب غميز الرجولية أبي جهل:

وأبو جهل عربيد، يتكذب، ورعديد يتكثر، ويدعي ما ليس في طاقته، ولا يكون منه، وأنى لغميز الرجولية أن يتماسك، ويتشاجع، ويسترجل، وسوابقه في الجبن والخور مع رسول الله ﷺ مروية عنه في حادث الأراشي الذي ظلمه حقه، وفي حادث صاحب الأجمال القرح الذي سامه عليها سومًا ظلومًا، ومنع الناس من سومه فوق ما ساومه عليه من وكس وتكسيد، فاستغاث الأراشي وصاحب الأجمال برسول الله ﷺ، فأغاثهما، وأرغم أبا جهل على إعطائهما حقهما وهو صاغر ذليل خزيان مخذول.

وقد رويت هذه القصة بصورة أخرى، تجعلها عرضة للشك في بطولة أبي جهل الفاشلة التي تضفيها عليه الرواية السابقة، يقول القرطبي في تفسير قوله تعالى:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا﴾

(يس: ٨)

قيل : نزلت في أبي جهل ابن هشام وصاحبيه المخزومين ، وذلك أن أبا جهـل حلف ، لئن رأى محمدًا يصلي ليرضخن رأسـه بحجر ، فلمـا رآه ذهب فرفع حجـرًا ليرميه به ، فلما أومـأ إليه رجعت يده إلى عنقـه ، والتصق الحجر بيده ، فهو على هذا تمثيل أي هو بمنزلة من غُلَّتْ يداه إلى عنقه ، فلما عاد إلى أصحابه أخبرهم بما رأى .

فقال الرجل الثاني وهو الوليد بن المغيرة : أنا أرضخ رأسـه ، فأتـاه وهو يصلـي على حالتـه ليرميـه بالحجر فأعمـى الله بصره ، فجعل يسـمع صوتـه ولا يراه فرجع إلـى أصحابه فلم يرهم حتى نادوه ، فقال : والله ما رأيته ، ولقد سمعت صوته .

فقـال الثالث : والله لأشـدخن أنا رأسـه ثم أخـذ الحجر وانطلق ، فرجع القهقرى ، ينكص على عقبيه حتى خر على قفاه مغشـيًا عليه ، فقيل له : ما شأنك ؟ قال : شأني عظيم ، قـال : رأيت الرجل فلما دنـوت منه ، وإذا فحل يخطر بذنبه مـا رأيت فحلًا قـط أعظم منه ، حال بينـي وبينه ، لو دنوت منه لأكلني .

ومهما يكن من أمـر هذه القصة فهي تمثل في روايتها ظاهـرة من ظواهر فشـل ملأ المادية الوثنيـة في طغيانها

وعتوهـا وغدرهـا ممثـلًا هـذا الفشـل في عربـدة غميز الرجوليـة أبـي جهل بـن هشـام، أو غيره من ألـد أعداء محمد ﷺ.

ولم يكن ذلك الفشـل والعربدة المخزومية بخافية على شيطان شياطين قريش، النضر بن الحارث، لأن هذا النضر في خبثه وشيطنته كان أعرف قريش بلؤم أبي جهل وتكذبه وخوره وجبانته.

موقف النضر من أبي جهل وعمه الوليد:

وعـرف النضـر أن أبا جهـل كان في هـذه الأقصوصة كدأبـه متكذبًا، خادعًـا مخدوعًـا، يتكثـر متنفجًا[١٩]، يحـاول أن يغطـي سـوءات رجوليتـه علـى قومـه، فقـام النضـر إلـى قريـش ليخرجها مـن ورطتها فـي الخضوع لزعامـة الوليد بن المغيرة، وتكذبـات أبي جهل، فقال: يـا معشـر قريش إنـه والله قـد نزل بكـم أمر مـا أتيتم له بحيلة بعد - وهذا غمز لما أشار به الوليد على قريش في تحذيرهـا وفود القبائل مـن محمد ﷺ، وغمز لأقصوصة أبـي جهل - قـد كان محمد فيكم غلامًـا حدثًا، أرضاكم فيكـم، وأصدقكـم حديثًـا، وأعظمكـم أمانـة، حتى إذا

(١٩) منتفجا: كل ما ارتفع فقد انتفج. انظر المخصص. (المجلة).

رأيتم الشيب في صدغيه، وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساحر! لا والله ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم، وقلتم: كاهن! لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتخالجهم(٢٠)، وسمعنا سجعهم، وقلتم: شاعر! لا والله ما هو بشاعر، وقد رأينا الشعر، وسمعنا أصنافه كلها، هزجه ورجزه، وقلتم: مجنون، لا، والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون، فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه، يا معشر قريش: فانظروا في شأنكم فإنه والله قد نزل بكم أمر عظيم.

وانتهى النضر من حديثه إلى ملأ قريش وقد بين لهم أن محمدًا ﷺ ولد، ونهد، وشب بينهم على أكمل ما كان رجل من مكارم الأخلاق، وفضائل الشمائل، وهم جميعًا يعرفون له ذلك ولا ينكرونه، فلما استوى كهلًا، واكتمل عقلًا، وجاءهم بالهدى قالوا فيه ما تقولوا عليه من أمور ما هو منها في سبد ولا لبد(٢١).

بيد أن النضر لم يعرض على ملأ قريش شيئًا يقولونه في

---

(٢٠) تخالجهم: حركاتهم. يقولون: خلج الرجلُ حاجبيه أي حرّكهما. انظر: العين. (المجلة)

(٢١) ما له سبد ولا لبد: السبد الشَّعْر، واللَّبد الصوف. والمعنى: ليس عنده من المال شيء. وكان المال عندهم من الغنم والبقر والإبل. (المجلة)

شـأن محمد ﷺ كما عرض الوليد عليهم أن يقولوا: إن ما جاء به محمد ﷺ ما هو إلا سحر يؤثر.

وكأن النضـر بعد أن فنـد كل أبطولة تتقولها قريش علـى محمد ﷺ كما فند الوليـد ذلك من قبله لم يجد مـن متقبلات العقـول أن يكذب نفسـه ويناقض قوله، كما كذب الوليد نفسـه وناقض قولـه، فهو قد نفى أن يكون محمد ﷺ سـاحرًا، وهذا يلزمه عقلًا ووضعًا أن لا يكون ما جاءهم به من القرآن الحكيم سـحرًا، فقول الوليـد – بعـد أن فكر، وقـدر ونظر، وتدبـر، وعبس وقطب، وبسر وكلح.. إن هذا إلا سحر يؤثر، تكذيب لنفسه وتناقض في قوله.

والنضـر بهذا الموقـف يغمـز الزعامـة المخزومية في شـخص طاغيتهـا، ويفيل رأيه، ويسـخر من عملـه ويهزأ بقوله الذي أشار به على قومه.

وسـكت النضـر، وتـرك الحيرة تسـعى إلـى عقول ملأ قريـش لعلهم إليه يرجعون، وكان قد أضمر في نفسـه أمرًا منكرًا أوحى به شـيطان الفجور الوثني، ليجر به قريشًا إلى الاعتراف بزعامتـه، ويقودها بمقود الخـداع إلى أن تخلع زعامة مخزوم في شخص طاغيتها الوليد.

قال محمد بن إسحاق: وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش، وممن كان يؤذي النبي ﷺ، وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة، وتعلم بها أحاديث الفرس وأحاديث رستم واسبنديار، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسًا فذكّر فيه بالله وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله، خلفه في مجلسه إذا قام، ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثًا منه فهلم إلي، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسبنديار، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثًا مني.

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن كل ما في القرآن من ذكر الأساطير - أي في وصف آياته بها - قد نزل في النضر بن الحارث.

والنضر بن الحارث بهذا الموقف يقف مزاحمًا للوليد بن المغيرة زعيم الرجس والكفر في قريش عامة، وبني مخزوم خاصة في افترائه الكذب على الله، وتكذيب النبي ﷺ وزعمه أن القرآن الحكيم أساطير الأولين، وأحاديث الأقدمين في خرافاتهم وقصص أسمارهم، كما ذكر ذلك عنه القرآن الكريم، فقال:

﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾

(الفرقان: ٥)

وقائل ذلك هو هذا الشيطان المريد، النضر بن الحارث، وإنما نسب إليهم معه لموافقتهم له وتأثرهم أثره في الافتراء والكذب، محاكاة له فيما يزعم ويفتري.

وقد استحوذ هذا الشيطان اللعين بهذه الخرافات والأباطيل المعسولة، على عقول السذج من سفهاء قريش وظنوا به العلم والمعرفة، ومن ورائهم ملأ الطغيان الوثني من أهل العتو والعناد وفجور الكفر، يسخرون بهم ويضحكون من بلاهتهم، ولكنهم لا يكذبونهم وهم يعلمون أنهم كاذبون.

ولهذا لما جلس الشيطان المريد يقص عليهم أحاديث الخرافات والأباطيل قال له ملأ قريش: إن أحبار يهود أهل الكتاب الأول، وعندهم علم من علم الأنبياء ليس عندنا، وبعثوه إلى يهود المدينة، ومعه أشقى عَتِيٍّ كفور، عقبة بن أبي معيط، ليسألاهم عن محمد ﷺ وعن دعوته ورسالته، فذهبا إليهم، وقالا لهم: أنتم أهل التوراة، فأخبرونا عن صاحبنا هذا؟ فقالت أحبار يهود لهما: اسألوه عن ثلاث

نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول فروا فيه رأيكم.

١- سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم؟ فإنه كان لهم حديث عجب.

٢- وسلوه عن رجل طواف، قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟

٣- وسلوه عن الروح، ما هي؟ فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه، فإنه نبي، وإن لم يفعل فهو رجل متقول، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

فأقبل النضر وصاحبه عقبة، تحفهما لعنات الله ومساخطه بعد أن قاما بمهمتهما مع أحبار يهود حتى قدما مكة على قريش فقالا - وقد ملكهما الغرور الفاجر، والزهو العتي لإتيانهما بما لم يأت به الطاغية الأفجر، الوليد بن المغيرة- : يا معشر قريش، لقد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، فقد أخبرنا أحبار يهود، أن نسأله عن أشياء أمرونا بها، وقالوا: فإن أخبركم عنها فهو نبي، وإن لم يفعل فالرجل متقول، فَرُوا فيه رأيكم، فجاءت قريش بملئها وسفهائها، تجرر أذيال الغرور

التياه، وتتدرع[٢٢] البطر والاستكبار، يقدمها الخبيثان، شيطاناها، وأشقياها: النضر وعقبة - إلى رسول الله ﷺ، نافجة أحضانها، منتفخة أوداجها، وذكروا له مسائل يهود مستخبرين عنها، فقال لهم رسول الله ﷺ: «أخبركم بما سألتم عنه غدًا» ولم يستثن أي لم يقل ﷺ: إن شاء الله.

درس تربوي لتوجيه النبي ﷺ إلى الاعتصام في جميع أحواله بمشيئة الله:

وهنا نجد درسًا تربويًا إلهيًا، فيما يتعهد به الله تعالى نبيه ورسوله ﷺ في تعليمه وتأديبه وتربيته حتى يكمله في خصائص الدعوة إلى الله تعالى، ليكون أسوة لأمته عامة وللقائمين بوراثة تبليغ رسالته عنه ﷺ من علماء الأمة وأعلام خاصة المصلحين.

فعدم ذكر رسول الله ﷺ المشيئة وهو يَعِدُ القوم بالرد على استخبارهم عن أسئلتهم التى لقنها لهم أهل العلم بالكتاب الأول من أحبار يهود، لم يكن منه ﷺ عن قصد متعمد، وإنما لعله كان عن نسيان دعت إليه دهشة المفاجأة، وجو الموقف، وشدته، ولم يكن يتوقع رسول الله ﷺ أن تأتيه قريش في جهالتها الوثنية المادية بمثل

(٢٢) تدرَّع: لبس الدرع.

هذه المسائل التاريخية العلمية الغامضة إلا على الذين لهم علم ومعرفة.

ويرشح هذا أن الله تعالى بعد أن أنهى درس تعليم نبيه ﷺ أن يكون رأيه في جميع أفعاله تعليق ذلك على مشيئة الله، لترتبط أعماله كلها بإرادة الله المطلقة التي لا تتقيد بزمان أو مكان أو مكانة شخص مهما كان مقامه من الله تعالى - قال لنبيه ﷺ ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾

(الكهف: ٢٤)

لتكون في جميع أحوالك مستمدًا أمداد الفلج والفوز من ربك القوي العليم الحكيم.

والنبي ﷺ في تبليغ رسالته قدوة لأمته في طرائق دعوتها إلى الله قيامًا منها بوراثة التبليغ عنه ﷺ، ورسالته ﷺ علم وعمل، فالله تعالى يعلِّمه ما لم يكن يعلم، وقد امتن عليه بذلك في قوله تعالى:

﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمًا﴾

(النساء: ١١٣)

ويهديه إلى صالح العمل ليقف عنده، لا يجاوزه، لتكون أمته مهتدية بهديه، سائرة على قدمه.

حكمة احتباس الوحي لعدم ربط الوعد بالمشيئة:

وهذه هي السبيل التي تلتمس في منعرجاتها الحكمة في احتباس الوحي عن رسول الله ﷺ فترة، فلم ينزل عليه بالإجابة عن أسئلة القوم في الموعد الذي حدده رسول الله ﷺ دون أن يربطه بمشيئة الله تعالى، ثم جاءت الإجابة محكمة سديدة موفقة مستوفاة لما ينبغي أن يعلم في موضوعاتها.

فقد جاءت مفصلة مسهبة فيما يقتضي العلم تفصيلها كقصة الفتية الذين ذهبوا في الدهر الأول، وما فيها من أعاجيب وغرائب ودلائل على عظمة القدرة الإلهية، وكقصة الرجل الطواف في الأرض وما بلغ من مشارقها ومغاربها، وما لقي من أقوام وما أصلح من أمور، وما أقام من عدل وما أسدى من رحمة وإحسان.

وجاءت مجملة فيها يجب فيه الإجمال، مما لا تطيق العقول إدراك تفاصيله، وهو الروح، وأنزل الله تعالى في قصة الفتية والرجل الطواف، سورة بأكملها من متوسط سور القرآن التي لا تعد في طواله، ولا تقرب أن تذكر في قصاره، هي سورة الكهف، وأنزل في مسألة الروح بعض آية ثم كمل الآية بالتنبيه إلى غرور الإنسان بما يعلم، وهو

أقل من القليل في جنب ما لم يعلم، حتى يكفكف من هذا الغرور، ويبعثه ذلك إلى البحث والتعلم ليزداد علمًا ومعرفة ما بقي في الحياة، وما بقيت له الحياة، فقال تعالى:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾

(الإسراء: ٨٥)

وهذه إجابة فهمها من أعد الله تعالى عقله وقلبه وروحه لفهمها، واستغلقت على من حاول أن يقحم عقله مستقلاً منفردا على مكنونات غيب الله في خلقه.

ومن هنا اتسع الخلاف جدًا، وكثرت الآراء والأقاويل والمذاهب في الروح المسئول عنها، ثم اتسع أكثر وأكثر في بيان معنى الروح وحقيقتها، الروح التي تكون بها حياة الإنسان، حتى بلغت المذاهب فيها أكثر من مئة قول ورأي ومذهب.

والذين خاضوا في لجة هذا البحث دون أن يعتمدوا في سبحهم على هداية من الله تعالى قد ضلوا السبيل، فمنهم من غرق في اللجة، ومنهم من نجا عرياناً من اليقين.

وفي قصة الإجابة عن أسئلة أحبار يهود التي لقنوها لشقيَّيْ قريش اللذين بعثتهما إليهم ليسألاهم عن محمد

ﷺ وصدقه في رسالته - كثرت الروايات واستطال رشاؤها واعْرضَّ أديمها، ولا سيما في مقدار المدة التي حبس فيها الوحي عن رسول الله ﷺ حتى قدرت في أشهر الروايات بخمسة عشر يومًا، وقد جاءت الإجابة وعرف صدقها، ولكن ملأ المادية الوثنية من طغاة قريش ظلوا على عتوهم الكفور حتى أذن الله تعالى بتطهير الأرض من أوضار من علم الله منهم أنه عنيد الكفر، لا يئوب إلى هدى، ولا يثوب إلى رشد.

الفهرس

***